Ahmad2006771

ابنة القائد

اسكندر بوشكين

maktbtna.com

58

روايات الهلال



روائع القصص العالمي

maktbtna.com



مكتبتنا

روايات الهلال

REWAYAT AL-HILAL

تصدر عن (دار الهلال) شركة مساهمة مصرية
رئيس التحرير : طاهر الطناحى

العدد ٩٩ * مارس ١٩٥٧ * شعبان ١٣٧٦

No. 99 -- March, 1957

بيانات ادارية

ثمن العدد فى مصر والسودان ٧٠ مليما — فى الأقطار العربيـة عن الكميات المرسلة بالطائرة : فى سوريا ٩٠ قرشا سوريا — فى لبنان ٩٠ قرشا لبنانيا — فى الأردن ٩٠ فلسا — فى العراق ٩٠ فلسا

قيمة الاشتراك عن سنة (١٢ عددا) : فى جمهورية مصر والسودان ٧٠ قرشا صاغا — فى سوريا ولبنان (بالطائرة بواسطة شركة فرج الله فى بيروت) ٩٧٥ قرشا سوريا أو لبنانيا — فى المملكة السعودية والعراق والأردن وليبيا ٩٠ قرشا صاغا — فى الامريكتين ١/٢ ٤ دولارات — فى سائر أنحاء العالم ١٢٢ قرشا صاغا أو ٢٥ شلنا

maktbtna.com

طريقة الدفع

فى مصر والسودان : بموجب أذونات أو حوالات بريدية أو شيكات — **فى الخارج :** بموجب حوالة نقدية (Money Order) أو حوالة مصرفية (شيك) على أحد بنوك القاهرة — وقيمة الاشتراك ترسل مقدما لقسم الاشتراكات بدار الهلال داخل خطاب مسجل أو الى أحد وكلائنا — ولا يمكن قبول أذونات البريد أو أوراق البنكنوت

مكتبتنا

الادارة : دار الهلال ١٦ شارع محمد عز العرب بك — القاهرة
المكاتبات : روايات الهلال — بوستة مصر العمومية — مصر
التليفون : ٢٠٦١٠ (عشرة خطوط)
الاعلانات : يخاطب بشأنها قسم الاعلانات بدار الهلال

روايات الهلال

maktbtna.com



مجلة شهرية لنشر القصص العالمي

ابنة القائد

تأليف

الروائى الأشهر

اسكندر بوشكين

maktbtna.com



دار الهلال

مؤلف الرواية

ولد اسكندر سرجيفتش بوشكين فى مدينة موسكو فى اليوم السادس والعشرين من شهر مايو سنة ١٧٩٩

واسرة والد اسكندر ، أسرة تقلب رجالها فى مناصب الجيش الروسى . ووصلوا الى رتبة الجنرال اكثر من مرة . وذكرت اسماؤهم فى نشرات الذكر الحسن العسكرية ولا سيما فى عصر الامبراطورة كاترين الثانية

اما والدة اسكندر التى تزوجها ابوه قبل ولادة اسكندر بعام واحد فهى حسناء تدعى « ناديا » . وهى حفيدة ربيب القيصر بطرس الاكبر الذى كانت تجرى فيه ـ أى فى هذا الربيب المسمى هانيبال ـ الدماء الأفريقية والملامح الزنجية

ومن هذا الطريق نستطيع أن نقول أن دما أفريقيا كان ينبض به قلب شاعر روسيا الاكبر

maktbtna.com

وكانت نشأة اسكندر مثل نشأة جميع ابناء الطبقة العليا فى روسيا فى ذلك الزمن . أى كان والداه يتركان أمر العناية به وتربيته للخدم والمربيات والمربين الخصوصيين وهم فئة من الأجانب

وتأثر اسكندر بهذه الظروف . فنشأ فرنسى اللسان بحكم تأثيره بمربيين فرنسيين فى طفولته . وافاده ذلك بأن أتقن القراءة بتلك اللغة وهو دون العاشرة . فلما بلغ الحادية عشرة كان قادرا على التهام أى كتاب فرنسى يختلسه من مكتبة والده الضخمة ليخلو بنفسه فى ركن حتى يأتى عليه عن آخره

مكتبتنا

ومما افاد اسكندر فائدة عظمى أنه وهب ذاكرة خارقة فيكفى أن يقرأ شيئا مرة حتى يحفظه عن ظهر قلب . وكان شديد الفطنة فلم يدع كتابا لفلاسفة القرن الثامن عشر الفرنسيين وأدبائه الا استظهره . فتمكن وهو يافع من الاحاطة بجميع

الثمار الناضجة التى قدمها بستان الثقافة الاوربية فى عصره

ثم قيض الله له رائدا من سلالة الفلاحين أرقاء الارض ، اسمه كوزولوف . فكان هذا الرائد هو حلقة الاتصال بين الفتى الاوروبى الثقافة وبين الروح الروسية الشرقية العريقة

كان هذا الرائد الفلاح الروسى يقص عليه اساطير بلاده القديمة. ويعرفه بروحها البكر . ويصحبه ليطوف به شوارع موسكو فى أحيائها الوطنية الصميمة . وبذلك تشرب الفتى الشاعر الروح القومية تشربا سليما أتاح له أن يتغنى فى شعره المبكر فيعبر عن آمال القومية الروسية وآلامها . فوجدت فيه الحركة التحررية التى كانت تضم معظم المثقفين لسانها الناطق القوى الذى سرت تعبيراته وأناشيده على ألسنة الشباب بكل سهولة وحماسة ، عند تخرجه من معهد ابناء النبلاء



وكان لنجاح أشعار بوشكين النجديدية المتحررة أثره فى الدوائر العليا ، فحاول القيصر أن يرهبه ولكن بغير جدوى . وتوالت قصائد بوشكين فى ذم نابليون وأباطرة الرومان القدامى لسياستهم الدكتاتورية الغاشمة . وكان الناس ، وكان القيصر نيقولا يدركون تماما أنها قصائد رمزية لا يراد بها فى الحقيقة الا التنديد بطريقة الحكم الراهنة فى روسيا

maktbtna.com

وأخيرا لجأ القيصر الى طريقة طالما اتبعها الملوك الطغاة . وهى تقريب ذلك الشاعر الخطر وتقليده وظيفة مظهرية فخرية فى البلاط . حتى يكون دائما مقيدا بجوار البلاط وحفلاته مكبلا بالتزامات الوظيفة الأدبية . وليقطع الصلة بينه وبين معسكر الأحرار

وفى تلك الفترة اشتد اعجاب بوشكين بشاعر آخر تغنى بالحرية وحارب من أجلها وهو اللورد بايرون الانجليزى . فلم يستطع بوشكين أن يحبس نفسه داخل حدود وظيفة القيصر . وكثر تغيبه وكثرت قصائده المحرمة فى عرف القيصر . ولم يجد بدا من النزوح الى املاك ابيه فى الريف . كى تبدأ مرحلة جديدة فى حياته الأدبية هى مرحلة فن القصة والرواية . اذ كتب فيها مسرحيات منها « عيد أثناء الطاعون » و « الفارس البخيل » ــ والى هذا العهد نرجع روايته « ابنة القائد »

مكتبتنا

وفى شـهر فبراير سـنة ١٨٣١ عشق بوشكين حسناء اسمها ناتاليا . وتزوجها واقام معها فى موسكو لينعم بالراحة والهدوء لأول مرة فى حياته . فوجد القيصر يتودد اليه من جديد ويفتح له اعتمادا ماليا منتهزا ازدياد مطالب الشاعر بعد الزواج ، تحت ستار تكليفه بكتابة سيرة للقيصر الاكبر

وللأسف كان هذا اللطف المفاجىء من القيصر له سبب خفى . هو جمال زوجة بوشكين التى فتنت الأوساط الراقية فى موسكو برشاقتها وحسنها الباهر . وكانت غانية مفتونة لم تقدر قيمة زوجها الأدبية الكبرى . فكانت ترهق اعصابه بطيشها واسرافها المجنون حتى انقلب نعيمه جحيما واضطرب عمله الفنى . وكثرت منازعاته مع الشبان والغلمان الرقعاء من أفراد الحاشية الملتفين حول زوجته كالفراش حول النار . وكانت للأسف تشجعهم على طريقة الغوانى المغرورات

وكثرت حول بوشكين الدسائس بسبب زوجته فى الحقيقة ، وبسبب نزعته الادبية المتحررة فى الظاهر ولا سيما وقد التف الناشئة من نوابغ أدباء الشباب حول رايته . ومن أشهر اولئك الادباء « جوجول » وأهل جيله الأفذاذ

وفى شهر نوفمبر سنة ١٨٣٦ تلقى بوشكين اهانة جرحت كبرياءه من سلوك زوجته وعلاقتها بالقيصر وبعض شخصيات حاشيته . فاشتبك فى مبارزة فقد فيها حياته . وفقدت فيها روسيا الرائد الاول لأدبها العالمى فى الشعر وفى النثر على السواء



أهم شخصيات الرواية

بطرس جرينيف Piotr Grineff : بطل الرواية الذى جاءت وقائعها على لسانه ، شاب فى الثامنة عشرة . نبيل . طيب القلب . مخلص . وحيد أبويه

اندريه بتروفتش Andre Petrovitch : أبوه ضابط سابق متقاعد . وشريف ريفى عصبي . مستبد طيب القلب

مارى كوزميتش (أو ايفانوفنا) Marie Kouzmitch : فتـــاة فى السادسة عشرة . فقيرة . نصف جاهلة . ابنة ضابط صغير

ايفان كوزميتش Ivan Kouzmitch : والد مارى . ضابط صغير رقى من نفر فى الجيش ترقية ميدان لشجاعته ــ طيب ساذج . باسل

maktbtna.com

شفابرين Chvabrine : ضابط قديم فى الحرس . قصير ، جميل ، ذكى . يجيد الفرنسية . بارع فى المبارزة

سافيلتش Saveliitch : خادم آل جرينيف ومربى بطرس بطل الرواية . عجوز ، مخلص إلى درجة التفانى ، له قلب قديس

بوجاتشيف Pougatcheff : متمرد تترى سكير طموح قاس . . . . ولـكنه مرح لا ينسى المعروف ، وشهم

كاترين الثانية Catherine قيصرة روسيا ــ فى نحو الخمسين ــ تولت العرش بعد زوجها

مكتبتنا

زورين Zourine : ضابط روسى مدمن للخمر ــ عربيد محب للهو والنكتة والمجون

الفصل الأول

الفتى

تحدث الشاب بطرس جرينيف ، بطل هذه الرواية التي يرويها المؤلف على لسانه ، فقال :

« كان أبي ـ أندريه بتروفتش جرينيف ـ ضابطاً في الجيش ، تحت قيادة الكونت مونيخ المشهور في عهد بطرس الأكبر والامبراطورة آن ، ثم ترك خدمة الجيش وهو بعد في رتبة الصاغ ، في سنة ـ ١٧ . ومنذ ذلك الحين وهو مقيم باستمرار في ضيعته بمقاطعة سمبرسك ، حيث تزوج الآنسة افدوتيا كبرى بنات شريف عريق الأصل قليل الثراء من جيرانه

وأثمر هذا الزواج تسعة أطفال ، لم يكتب لأحد منهم اتصال العمر سوى واحد فقط ، هو أنا .. أما سائر اخوتي واخواتي فتوفوا تباعاً وهم أطفال .. ومنذ عامي الأول قيدوا اسمي جاويشاً في الحرس القيصري ، في فرقة سمينوفسكي ، بفضل وساطة قريبنا قائد تلك الفرقة الأمير ب ... ونص في براءة التعيين على اعتباري في اجازة مستمرة الى أن يتم تعليمي

وكان التعليم في تلك الأيام على غير مادرج عليه الناس في هذه الأيام ، ففي سن الخامسة عهدوا بتأديبي وتثقيفي الى عبد من عبيدنا متقدم في السن ، زكته تقواه ، وأمانته ، واستقامته وزهده في الخمر ، كي يكون رائدي الخاص ، واسم هذا العبد سافيلتش

وبفضل هذا العبد ، كان في وسعي وأنا في سن الثانية عشرة أن أقرأ ، وأكتب ، وأحذق الصيد ، وأحسن الحكم على فصائل كلاب الطراد والخيل. وفي تلك السن رأى أبي أن يستكمل تعليمي . فاستقدم لهذا الغرض من

maktbtna.com
مكتبتنا

موسكو سيداً فرنسياً اسمه بوريه .. مع خزين العام من نبيذ فرنسا وزيتها

ولم يرق وصول هذا الفرنسى للعبد المسن سافيلتش ، الذى جعل يجاهر بسخطه لكل انسان يجد لديه استعداداً للسمع ويقول :

— إن الطفل كان بحمد الله مكفول الحاجات جميعاً : طاعماً ، شارباً ، كاسياً ، مرجل الشعر ، نظيف الهندام .. فما وجه الضرورة لانفاق المال على هذا « المسيو » ، كأنما ليس فى الدار ما يكفى من الخدم !!

وكان بوريه هذا حلاقاً فى بلده فرنسا ، ثم جندياً فى بروسيا من المرتزقة، وبعد ذلك حضر الى الروسيا ليكون مؤدباً وأستاذاً ، من غير أن تكون لديه أدنى دراية عن معنى هذه الكلمة

لا أنكر أنه كان فتى طيب القلب ، بيد أنه شارد الذهن باستمرار ، لا يلقى باله الى شيء ، ولا يهتم بأمر .. وفضلا عن هذا لم يكن — على حد تعبيره — عدواً لدوداً للكأس وبنت الدنان .. ومعنى هذا بلغة روسية صريحة انه أخو خمر ، يدمنها ولا يطيق صبراً عليها .. والخمر عنده هى النبيذ الفرنسى

ولما كنا لا نقدم النبيذ لدينا إلا على الطعام ، وفى كئوس صغيرة .. وحتى فى تلك المناسبات تتخطى « الأستاذ » فلا علا كأسه معنا .. فسرعان ما تعود بوريه خمرنا الروسية ، وانتهى به الأمر الى تفضيلها حتى على نبيذ وطنه فرنسا، لأنه أشد سطوة وأقوى خماراً

وفى يسر عظيم توطدت بينى وبين بوريه روابط الصداقة .. ذلك ان عقده كان ينص على قيامه بتعليمى اللغة الفرنسية واللغة الألمانية وكافة العلوم . ومع هذا كان يفضل أن يتعلم منى كيف يتهته باللغة الروسية حسبما اتفق . وكل منا حر فى وقته بعد ذلك .. فلا عجب أن يصفو الوداد بيننا ، فما كنت أريد خيراً من هذا .. إلا أن القدر شاء أن يفرق بيننا بسرعة ، وكان ذلك على أثر حادث أرويه هنا

روى أحدهم لوالدتى وهو يضحك أن بوريه لا يفيق من الخمر أبداً . وكانت أمى لا تميل للمزاح فى هذا الباب .. ولا تقبل فيه شفاعة . فشكت الى أبى الأمر .. وبما عهد فيه من همة قعساء أرسل على الفور فى طلب هذا الوغد الفرنسى .. فقيل له بكل خضوع انه يلقننى درساً فى حجرتى . فاندفع أبى الى حجرتى .. وكان بوريه يغط فى نومه فى الفراش ، من أثر الخمر . أما أنا

maktbtna.com

فكنت منصرفاً الى مهمة غاية فى الطرافة !

كانوا قد جلبوا لى خريطة جغرافية ملونة كبيرة من موسكو ، ظلت معلقة على الحائط من غير أن يفكر أحد فى استعمالها .. وهى تراودنى عن نفسها بضخامة مساحتها وصلابة ورقها ..! فعزمت أن أتخذ منها طيارة من نوع نادر متين ..! وانتهزت فرصة استغراق بوربيه فى نومه على فراشى ، وانصرفت الى هذا العمل الجليل !

وكان دخول أبى فى حجرتى وأنا أعلق الذيل ، فى الموضع الذى به رأس الرجاء الصالح بالضبط ! فلما رأى أبى ذلك الاستعمال الشاذ للجغرافية جذبنى من أذنى بعنف ، وهجم على الفراش ، فأيقظ بوربيه من غير امهال أو حذر ، وشرع على الفور يصب عليه الملام والاتهامات

واضطرب بوربيه ، وحاول أن ينهض من رقاده ، ولكن عبثاً .. لأن الأستاذ المسكين كان مخموراً الى حد مميت ، فرفعه أبى من ياقة قميصه ، وألقى به خارج الحجرة ، ثم لم يلبث أن طرده من عمله فى اليوم ذاته

ولا تسل عن فرح سافيلتش بذلك الطرد الذى «صادف أهله» . والذى انتهت به آخر محاولة لتعليمي وتثقيفي .. وعشت بعدها حياة أبناء البيوتات من الأحداث .. أتلهى بتطيير الحمام فوق السقوف ، أو أمارس الألعاب الصبيانية مع صغار الفلاحين

وظلت حياتى على هذه الحال الى أن جاوزت السادسة عشرة من عمرى . وفى تلك السن اعترى حياتى تغيير حاسم



وذات يوم من أيام الخريف كانت أمى منهمكة فى إعداد شىء من الكعك المحشو بالعسل . وأنا جالس قبالتها أتحلب ريقى وأتشمم الرائحة الشهية . أما أبى فكان جالساً بالقرب من النافذة يتصفح تقويم البلاط القيصرى الذى يصله بانتظام فى كل عام . وهذا الكتاب كان ذا أثر بليغ فى حالته النفسية . فما من مرة تناوله إلا فى انتباه وعناية شديدين . وما من مرة إلا وانتهت القراءة فيه بإثارة كوامن الصفراء وتنشيط إفرازها فى جسده

وكانت أمى تعرف خصاله تلك عن ظهر قلب . لهذا كانت تخفى ذلك الكتاب

maktbtna.com
مكتبتنا

المنكود ما وسعها الاخفاء . حتى يظل بعيداً عن أنظاره شهوراً طوالا . بيد انه ما أن تعثر به يده ، حتى يتشبث به ساعات طوالا

وفى ذلك اليوم كان أبى يطالع فى تقويم البلاط ويهز كتفيه فى الحين بعد الحين هزاً متوالياً وهو يغمغم بصوت مخنوق :

— جنرال ؟.. كان هذا المتعوس جاويشاً فى فرقتى .. فارس فى طبقة نبلاء الروسيا ؟. وهل هو أعرق منا ؟

وأخيراً ألقى أبى التقويم من يده . بأن طوحه بعيداً فوق الأريكة ثم استغرق فى تفكير عميق . وهى ظاهرة لاتبشر أبداً بالخير . وفجأة صاح بأمى:

— يا افدوتيا يا بنت فاسيلى ! كم عمر بطرس الصغير الآن ؟

— إنه شرع فى عامه السابع عشر . لأن بطرس الصغير مولود فى السنة عينها التى قعدت فيها عمتنا ناستازيا عينها ، و ..

فقاطعها أبى قائلا :

— مفهوم مفهوم ! إذن حان أن يلتحق بالخدمة العسكرية

وكانت فكرة اقتراب فراقى عن والدتى شديدة الوقع جداً على نفسها ، حتى ان الملعقة سقطت من يدها فى وعاء العسل ، وانهمرت من عينيها قطرات دموع سقطت أيضاً فى ذلك الوعاء

أما أنا ، فكان من الصعب علىّ أن أغالب أمارات الفرح الذى استولى على نفسى . لأن الخدمة فى الجيش كانت تختلط فى رأسى بمعنى الحرية التى تتيح مسراتها وملذاتها مدينة سان بطرسبورج . وتخيلت نفسى ضابطاً فى الحرس. وهى فى وهمى يومئذ غاية آمال النجاح والسعادة

وكان أبى طرازاً من الرجال لا يحب تعديل خططه أو إرجاء تنفيذها . لذا حدد فى الحال تاريخ رحيلى . وعشية الرحيل أخبرنى أبى انه سيعطينى خطاباً الى رئيسى . ثم طلب أن أوافيه بورق وأقلام . فقالت له أمى :

— إياك أن تنسى يا اندرى بتروفتش أن تخط سلامى للأمير ب .. وقل له ألا يحرم من عطفه أميرى بطرس

فقطب أبى حاجبيه وصاح بها :

— ما هذا التخريف ! لماذا تريدين أن أكتب للأمير ب ..؟

— ولكنك قلت الآن انك ستتفضل بالكتابة الى رئيس بطرس

maktbtha.com
مكتبتنا

ــ نعم . ثم ماذا ؟

ــ ولكن رئيس بطرس هو الأمير ب .. لأن بطرس كما تعلم مقيد على فرقة سمينوفسكى

ــ مقيد ؟! وماذا يهمنى إن كان مقيداً أو غير مقيد ؟ بطرس سوف لا يذهب الى بطرسبورج

ــ ولماذا ؟

ــ لماذا ؟ ولماذا يذهب ؟ انه لن يتعلم هناك شيئاً طيباً . اللهم إلا إنفاق المال واقتراف الحماقات . كلا ! يجب أن يخدم فى الجيش لا فى الحرس القيصرى. فهناك سيملأ خياشيمه بالبارود ويغدو جندياً لا دمية للزينة . أين هى براءة تعيينه أعطنها الآن

فنهضت أمى لتحضر تلك البراءة التى تحتفظ بها فى صندوق صغير مع القميص الذى كنت أرتديه يوم عمادى . وقدمت أمى البراءة الى أبى بيد مرتعدة . فقرأها أبى بإمعان . ثم وضعها أمامه على المائدة وبدأ الكتابة

واستبد بى القلق . فإلى أين يزمعون إرسالى إن لم يكن الى بطرسبورج ؟ ولهذا لم أنقل بصرى عن قلم أبى الذى كان يجرى ببطء فوق الورق وأخيراً ختم أبى الخطاب ووضعه فى غلاف واحد مع براءتى ، ثم خلع منظاره ونادانى :

maktbtna.com

ــ إن هذه الرسالة موجهة الى اندرى كارلوفتش ، صديق القديم ، ورفيق فى السلاح . وسيكون رحيلك الى أورنبورج لتخدم تحت إمرته . وأورنبورج هى عاصمة الاقليم المعروف بهذا الاسم . وهو فى أقصى الشرق من روسيا الأوربية . بل ويمتد قليلا داخل آسيا

وانهارت جميع الآمال العريضة التى بنيتها فى خيالى . فبدلا من حياة المرح والحيوية فى بطرسبورج . سأجد السأم ينتظرنى فى ركن ناء همجى . وإذا بالخدمة العسكرية التى كنت أطير طرباً بها منذ قليل ، وقد بدت لى كارثة مروعة . ولكن لم يكن أمامى إلا الاذعان

مكتبتنا



وفى صباح اليوم التالى وجدت زحافة سفر أمام سور الشرفة . ووضعوا فيها حقيبة كبيرة وخواناً وأدوات الشاى ومناشف معقودة على كثير من الحلوى

والفطائر هى آخر طرف حياتى فى بيت أبى

ومنحنى والداى بركتهما وقال لى أبى :

— مع السلامة يا بطرس . وعليك أن تخدم باخلاص وأمانة من أقسمت له يمين الولاء والطاعة . وأطع رؤساءك . ولا تتهالك على رضاهم . ولكن لا ترفض ذلك الرضاء حين يأتيك . وتذكر المثل الذى يقول : « إحرص على سلامة ثوبك وهو جديد . وعلى سلامة شرفك وهو ناشىء »

أما أمى فانهمرت دموعها وراحت توصينى بالعناية بصحتى . وتوصى خادمى المسن سافيليتش أن يرعى جيداً « الطفل الصغير » ثم وضعت على كاهلى قباء من جلد كلاب الصيد . ومن فوقه فراء من جلد الثعلب المخيط . واسع فضفاض . ثم صعدت فجلست فى المحفة مع سافيلتش . وانطلقت المحفة بنا الى وجهتى المرسومة وأنا أبكى بكاء مراً

وكان وصولى عند هبوط الليل الى تمبسك ، حيث كان ينبغى أن أقضى أربعاً وعشرين ساعة ريثما يقوم سافيلتش بقضاء مهام كثيرة كلفه بها والداى

وكان نزولنا فى خان قضينا به الليل . وفى الصباح الباكر انطلق سافيلتش يطوف الحوانيت والمتاجر وتركنى وحدى فثقل على نفسى مرور الوقت . وسئمت النظر من النوافذ الى حارة قذرة . فقمت أطوف فى حجرات الخان . . .



الفصل الثانى

التأهب للخدمة

قال بطرس :

— وانتهى بى التجوال الى قاعة البلياردو . فرأيت فيها سيداً طويل القامة فى نحو الأربعين من عمره . له شارب طويل أسود اللون . يرتدى روباً ، وفى يده عصا البلياردو وفى فمه البيبة . وكان يلاعب عامل الاحصاء المخصص لتسجيل نقط اللاعبين . وهو من ضمن خدم الفنــدق . وفى الوقت نفسه لاحظت ان السيد يراهن هذا العامل رهاناً طريفاً . ان ربح العامل الشوط شرب على حساب السيد قدحاً من الخمر . وإن خسر فعليه أن يمر تحت مائدة البلياردو على أربع !

maktbtna.com

وجعلت أتسلى بمراقبتهما وهما يلعبان . وكلما طال الوقت كثرت رحلات العامل المسكين تحت المـائدة أو شرب كؤوساً من الخمر . الى أن اشتد به السكر وتعب من كثرة القيام والقعود فاعتصم تحت المائدة وقرر البقاء هناك اختصاراً للجهد . فاذا السيد يزمزم عليه ما أدركت أنه صلاة الجنازة . باعتباره انتقل الى رحمة الله مقتولا بكثرة ما أثخن به من الهزائم !

ثم التفت السيد نحوى واقترح أن ألاعبه ، فقلت له انى لا أعرف لعبة البلياردو . ويظهر ان هــذا كان فى عرفه شيئاً يسترعى الاستغراب فرمقنى بنظرة رثاء . إلا ان هذا لم يمنع من مواصلة حديثه معى

وعرفت منه انه يدعى ايفان ايفانوفتش زورين . وانه قائد كتيبة فى سلاح الفرسان فى فرقة (...) وانه موجود فى الوقت الحاضر فى سمبرسك كى يتلقى بعض الامدادات . ونزل فى هذا الفندق مثلى

ودعانى زورين الى تناول العشاء معه بغير تكليف وحسب ما يتفق لهما من الألوان فى ذلك الخان وقبلت دعوته بكل سرور وجلسنا الى المائدة . وشرب زورين كثيراً ودعانى الى الشراب وهو يقول انه ينبغى ان أعد نفسى منذ الآن للخدمة العسكرية التى تعتبر القدرة على الشراب من مقوماتها الهامة ! وأخذ زورين يقص علىّ الملح والنوادر عن حياة الثكنات . وأنا أضحك وأتلوى وأمسك جنبي من كثرة القهقهة . فلما نهضنا عن المائدة كنا قد أمسينا أصدقاء أوفياء وعندئذ عرض علىّ أن يعلمنى لعبة البلياردو قائلا :

— إنها شيء لا غنى عنه لجنود مثلنا . فلنفرض انك وصلت الى قرية صغيرة لتعسكر فيها . فماذا يمكنك أن تصنع فيها ؟ ليس من المستطاع فى جميع الأوقات التسلى بصفع اليهود أو تعذيبهم . فهناك مناطق للأسف خالية منهم تماماً . وعندئذ لا مناص من التوجه الى الفندق للعب البلياردو

— هذا يبدو معقولا . . !

— ولكى تلعب البلياردو . يجب أن تتعلم أولا كيف تلعبه !

وأقنعتنى هذه الحجج تمام الاقناع . فخففت معه لتلقى درسى الأول فى كثير من الحماسة . وكان زورين يشجعنى بصوت مرتفع ويبدى تعجبه من تقدمى السريع . وبعد برهة وجيزة اقترح أن نلعب مراهنة . لا من أجل الكسب بل حتى أتعود عدم اللعب مجاناً . لأن ذلك أمر مستهجن فى الجيش . فقبلت

وأمر ايفان فأحضروا مشروباً شديد المفعول هو البانش . ونصحنى أن أذوقه ، مكرراً على الدوام أن ذلك واجب كى أتأهب للخدمة

— فما معنى الخدمة فى الجيش من غير بانش ؟

فاتبعت نصحه وأخذنا نلعب . وكلما احتسيت رشفة من كأسى زادت جسارتى . وجعلت أقذف بالكرات من فوق الحاجز من شدة الضربات . فاغتاظ وامب عامل الاحصاء الذى يسجل لنا النقط

ولا أدرى كيف رفعت قيمة الرهان . وتصرفت على الجملة تصرف صغار الحمق فمر الوقت بسرعة غريبة . الى أن رمق زورين الساعة ثم وضع عصاه من يده وأعلن أننى خسرت مائة روبل . فشعرت بالاضطراب لأن نقودى كانها مودعة عند سافيلتش . وأخذت أغمغم معتذراً الى ايفان فقال :

— ما هذا يارجل ؟ لا تقلق . بوسعى أن أنتظر

maktbtna.com
مكتبتنا

وتناولنا بعد ذلك عشاء متأخراً وهو لا يكف عن ملء كأسى ، مكرراً باستمرار لمن هذا من قبيل تأهيلى للخدمة . فلا عجب اننى حين قمت عن المائدة كنت لا أقف على قدمى إلا بصعوبة . فسندنى روزين حتى باب حجرتى

ولما حضر سافيلتش ورآنى على تلك الحالة الشنيعة من التأهب للخدمة ، أطلق صرخة ، وقال وهو يولول :

— ما هذا الذى جرى لك ياسيدى ؟ كيف أفرطت هكذا مثل قربة الخمر ؟ يا للمصيبة ! إن كارثة كهذه لم تحدث من قبل

فأجبته وأنا أتلعثم :

— اسكت أيتها البومة العجوز . أنا متأكد انك سكران . إذهب ونم . ولكن قبل هذا أرقدنى فى فراشى . . .



وفى اليوم التالى استيقظت وبرأسى صداع شديد . وتذكرت بصورة غامضة حوادث الليلة السابقة الى أن قطعت علىّ تفكيرى رائحة فنجان الشاى الذى حمله إلىّ سافيلتش . وقد دخل يهز رأسه ويقول :

maktbtna.com

— لقد بدأت فى وقت مبكر جداً يابطرس يا ابن اندرى سيدى الجليل ! وعمن أخذت هذا ؟ فما كان أبوك وما كان جدك من السكارى . ولا محل طبعاً للكلام فى هذا الشأن عن والدتك . فما عرفت الخمر طريقها الى فمها قط منذ ولادتها . اللهم إلا الأسرار المقدسة . فمن هو المسئول يا ترى ؟ انه ذلك المسيو الفرنسى الملعون . علمك ابن الكلب هذا أشياء جميلة جداً . وهذه نتيجة اختيار وثنى كافر للقيام بتأديبك . كأن سيدى ليس لديه الكفاية بين عبيده وخدمه !

فشعرت بالخجل ، والتفت نحوه قائلا :

— إذهب عنى يا سافيلتش لست بى حاجة الى الشاى

مكتبتنا

ولكن لم تكن هناك وسيلة لتهدئة سافيلتش ما دام قد شرع فى إلقاء مواعظه ومزاميره . فاستطرد قائلا :

— أرأيت ؟ أرأيت يابطرس عاقبة ارتكاب الحماقات ؟ إنك تشعر بصداع . ولا شهية لك لتناول شيء . ذلك ان الشخص الذى يسكر لا يصلح لشيء . قم

اشرب شيئاً من الخل ممزوجاً بالعسل

وفى هذه اللحظة دخل غلام صغير يحمل إلىّ رسالة من زورين . ففتحتها وقرأت فيها السطور التالية :

— عزيزى بطرس اندرى فتش . أرجو أن تسلم حامل هذا وهو غلامى المائة روبل التى خسرتها أمس . فانى بحاجة ماسة الى نقود . وتقبل تحية المخلص ... ايفان زورين

ولم يكن أمامى محيص عن مواجهة الموقف . فوضعت على سحنتى سمات عدم الاكتراث . وقلت لسافيلتش أن يعطى هذا الغلام مائة روبل . فقال مذعوراً :

— ماذا ؟ كيف ؟ ولماذا ؟

فقلت بأبرد ما استطعت من اللهجة :

— إنى مدين بها لسيده

فانتفض سافيلتش وقد زادت دهشته

— مدين بهـا ؟ وكيف انفسح لك الوقت كى تستدين مثل هذا المبلغ الطائل ؟ هذا مستحيل . افعل ما شئت ياسيدى ولكنى لن أؤدى هذا المبلغ

فقلت فى نفسى إن لم أرغم هذا العبد العجوز العنيد على الطاعة فى هذه اللحظة الحاسمة . فسوف يكون من الصعب فيما بعد أن أتخلص من قوامته علىّ وأنا فى الجيش . فرمقته بنظرة متعالية وقلت :

— إنى أنا السيد . سيدك . وأنت خادمى . والمال مالى . وأنا خسرته لأنى أردت أن أخسره . وأنصحك ألا تتصنع الشهامة واستقلال الرأى . وأن تطيعنى كلما أمرتك

وأحدثت كلماتى فى العبد تأثيراً عميقاً . فجعل سافيلتش يضرب كفاً بكف ووقف يحملق صامتاً مبهوتاً . فصحت به فى غضب :

— ماذا تصنع واقفاً هكذا كالناطور ؟

فانفجر سافيلتش باكياً وقال بصوت مرتعش :

— يا أبى الصغير بطرس لا تقتلنى كمداً . يانور حياتى إسمع ما أقوله أنا العجوز . واكتب الى هذا اللص قاطع الطريق انك لم تكن إلا مازحاً ، وأننا

لا نملك كل هــذا المبلغ . مائة روبل ؟ يا إله السلام والرحمة !.. قل له أن والديك يحرمان عليك قطعياً ألعاب الميسر

فقلت له بغلظة :

ـــ ألا تريد أن تسكت ؟ أعطه المبلغ وإلا طردتك من هنا باللكمات !

فحملق سافيلتش فى وجهى باستياء شديد ثم ذهب ليحضر المال . وشعرت بالرثاء للشيخ المسكين ولـكنى كنت راغباً فى التحرر من سلطانه وإقامة الدليل على اننى لست طفلا

وهكذا حصل زورين على المـائة روبل . وجعل سافيلتش همه كله أن نغادر هذا الفندق اللعين فوراً . ومن غير أن أودع أستاذى فى التأهب للخدمة

maktbtna.com



الفصل الثالث

العاصفة

سافرت من سمبرسك بنفس مثقلة بدواعى الخزى من سلوكى ولا سيما ازاء سافيلتش . ويضاف إلى هذا أننى شغلت طوال الرحلة بعواقب حماقتى . لأن المبلغ الذى خسرته كان يعتبر فى ذلك الزمن جسيما . وسيكون لفقده أثر كبير على ميزانيتى فى المستقبل القريب . وزاد من عذابى أنى جزيت إخلاص سافيلتش بالإساءة والغلظة

وكان العجوز صامتاً أمامى صمت القبور عند مقدمة المحفة ، وقد أشاح بوجهه عنى . وجعل يسعل بين الحين والحين سعالا ينم عن الاستياء والغيظ . فعزمت أن أعقد الصلح معه ، ولكنى كنت لا أعرف من أين أبدأ . وأخيراً قلت :

— اسمع يا سافيلتش . فلنتخلص من هذا الموقف ولنعقد الصلح . فأنا معترف أنى أخطأت . اقترفت بالأمس حماقات وأسأت اليك من غير مبرر . وأعدك أن أكون أكثر تعقلا فى المستقبل . وأحسن الاصغاء الى رأيك . فلا تسترسل فى غضبك . ولنتصالح يا سافيلتش

فأجابنى بزفرة عميقة قائلا :

— يا أبى الصغير بطرس . إنى لست غاضباً منك بل من نفسى . فأنا المخطىء من جميع الوجوه . إذ كيف خطر لى أن أتركك وحدك فى الفندق ؟ ولكن ما حيلتى ؟ إن الشيطان هو الذى وسوس لى بذلك . فنبتت فى رأسى رغبة مفاجئة فى زيارة زوجة قسيس البلدة لأنها كانت أمى فى الرضاع . فكان خروجى من الدار هو سبب البوار والخسار . ومن خرج من داره على رأى

maktbtna.com

المثل أوشك أن يقع فى السجن . يا لها من مصيبة ! يا لها من بلية ! بأى وجه ألتى بعد اليوم مولاى ومولاتى ؟ ماذا سيقولان حينما يعلمان أننى تركت ابنهما يقابل سكيراً عربيداً لاعب قمار ؟

ولكى أسرى عن المسكين سافيلتش جعلت أحلف له أنى لن أتصرف بعد اليوم فى قرش واحد بدون موافقته . فهدأ قليلا . بيد أن ذلك لم يمنعه من الدمدمة بين الحين والحين وهو يهز رأسه ويقول :

— مائة روبل ! الكلام سهل ولكن . . .

وكنت أقترب من غايتى . ومن حولى صحراء كئيبة موحشة ممتدة على مدى البصر منتثرة فيها كثبان صغيرة ووديان عميقة . وكل شيء مغطى بالجليد . وكانت الشمس قد مالت الى الغروب ومحفتى تسير فى طريق ضيق . أو على الأصح فى الأثر الذى تبقى من مرور زحافات الفلاحين . وعلى غرة التفت سائقى نحوى وقال :

— مولاى . ألا تتفضل فتأمرنا بالتراجع ؟

— ولماذا ؟ . . ولماذا ؟ . .

— إن الجو ليس مأموناً . والريح بدأت تهب دافعة أمامها الثلج كالكرات

maktbtna.com

— ثم ماذا ؟ وما أهمية ذلك ؟

— أنظر الى الشرق . ألا ترى شيئاً هناك ؟

— إنى لا أرى إلا السهول البيضاء والسماء الصافية

— هناك . هناك . انظر . تلك السحابة الصغيرة

ولمحت فعلا على الأفق سحابة صغيرة بيضاء حسبتها فى مبدأ الأمر تلا نائياً . بيد أن سائقى وضح لى أن تلك السحابة الصغيرة هى النذير بهبوب إعصار جليدى . وكنت قد سمعت من قبل بالأعاصير الجليدية التى تهب أحياناً فى تلك المنطقة . وكنت أعلم أنها ربما ابتلعت فى جوفها قوافل بأ كملها

مكتبتنا

وانضم سافيلتش الى السائق فى الرأى ونصحنى أن آمر بالتراجع . ولكن الرياح بدت لى غير عنيفة . فأملت أن نصل فى الوقت المناسب الى المحطة التالية . وأمرت بمضاعفة السرعة فى السير قدماً

وألهب السائق جياده فأسرعت تنهب الأرض . بيد أنه ظل ينظر دائماً

الى جهة الشرق بقلق . وأخذت شدة الرياح تزداد . وانقلبت السحابة الصغيرة بعدقليل سحابة كبيرة بيضاء أخذت ترتفع فى كبدالسماء الصافية بتثاقل و بطء . وهى تزداد اتساعاً وضخامة الى أن غطت وجه السماء كله

وأخذ الجليد الرقيق الدقيق يتساقط رويداً . وفجأة انهمر فى شرائح ضخمة . وأخذت الرياح تصفر وتعوى . فبدأ بذلك الإعصارالثلجى . وما هى إلا برهة حتى كانت السماء قد اختلطت ببحر الجليد الذى تثير فيـه الريح أمواجاً ضخمة قاضية . ثم اختفى كل شىء عن ناظرينا وامتنعت الرؤية . وصرخ السائق :

— الويل لنا يا مولاى ! إنه الإعصار

فأخرجت رأسى من المحفة فوجدت كل شىء قاتماً مضطرباً متحركا . والرياح تهب فى ضراوة حتى كأنها كائن حى فى حالة هياج . وانهمر الثلج فوقفنا حتى غطانا . فهبطت سرعة الجياد ثم لم تلبث أن توقفت تماماً . فقلت للسائق وقد أوشك صبرى على النفاد

— لماذا وقفت ؟

فأجابنى وهو يهبط من المحفة :

maktbtna.com

— وأين أتجه ؟ إن الله وحده يعلم أين نحن الآن . لم أعد أتبين الطريق على الأرض وكل شىء من حولنا محجوب بالجليد

فأخذت أوبخه . فأخذ سافيلتش جانبه ودافع عنه قائلا بحدة :

— لماذا لم تسمع كلامه ؟ كان يجب أن نرجع فنتناول شاياً ساخناً وننام الى الصباح ربما يهدأ الإعصار ونستأنف المسير . ثم لماذا كل هذه العجلة ؟ لو أنك كنت متعجلا كى تذهب الى عرسك لكان هـذا مفهوما . أما الطوابير . . . !

وكان سافيلتش على حق ولـكن ماذا نصنع الآن ؟ إن الثلج مستمر فى التساقط وقد تكونت منه كومه كبيرة حول المحفة ووقفت الخيل جامدة فى أماكنها مطأطئة الرأس ترتعد أوصالها . وأخذ السائق يطوف حولها ويصلح اللجم فى مواضعها كأنما لا يشغله شىء غير ذلك . وسافيلتش مستمر فى توبيخه لى . فجعلت أنظر حولى من كل جانب وفى أملى أن ألمح ما يدل على وجود مسكن أو طريق . فلم أستطع أن أرى إلا حركة الاعصار الدائبة

مكتبتنا

وفجأة خيل إلىّ انى تبينت شيئاً أسود . فقلت بلهفة :

ــ أنظر أيها الحوذى ! ما هذا الشىء الأسود الذى هناك ؟

فجعل الحوذى ينظر حيث أشرت ثم قال :

ــ الله أعلم يامولاى

ثم صعد الى مقعده وقال بغير مبالاة :

ــ ربما كان شجرة . ولكن يخيل إلىّ انه يتحرك . فمن الممكن أن يكون ذئباً أو إنساناً . الله أعلم يامولاى

فأمرته أن يتجه نحو ذلك الشىء المجهول الذى رأيناه يتجه أيضاً نحونا . وفى مدى دقيقتين وصلنا الى قرب موضعه فتبينت أنه رجل . وصاح به الحوذى :

ــ ألا تعرف يا رجل أين الطريق ؟

ــ الطريق من هنا . فأنا واقف فوق موضع صلب . ولكن ما فائدة معرفة الطريق الآن والرؤية ممتنعة ؟

فقلت له وأنا مطل من المحفة :

maktbtna.com

ــ اسمع أيها الفلاح . أتعرف هذه المنطقة ؟ أتستطيع أن تقودنا الى مكان نقضى فيه هذه الليلة ؟

قال :

ــ هذه المنطقة ؟. الحمد لله انى قطعتها طولا وعرضاً على قدمى وبالعربة . ولكن ألا ترى حالة الجو ؟ اننا لانلبث أن نضل الطريق لو مشينا . فالأفضل أن نقف هنا وننتظر . فربما انتهى الاعصار فتصفو السماء

ــ ولكن الليل حل

ــ لو صفت السماء لاستطعنا أن نعرف طريقنا بواسطة النجوم

وكان الرجل هادئاً ثابتاً فردت شجاعته شجاعتى . وبدأت أوطن النفس على قضاء الليل فى محفتى وسط صحراء الجليد . وإذا بهذا العابر المجهول يجلس فوق مقعد السائق ويقول له :

ــ الحمد لله ان هناك مسكناً قريباً من هنا . در الى اليمين وسر الى الأمام

فأجابه الحوذى ضاحكا :

— ولماذا اتجه الى اليمين لا الى الشمال ؟ هل تبينت الطريق وسط هذه العتمة ؟ أم لأن الخيل ليست خيلك فلا بأس عليك من إلهابها بالسياط ؟

وخيل إلىّ ان الحوذى محق . فقلت للغريب :

— ولماذا تظن ان هناك مسكناً غير بعيد ؟

— إن الريح تهب من جهة اليمين . وقد شممت رائحة دخان . مما يدل على ان هناك مسكناً غير بعيد فى ذلك الاتجاه

فملأنى العجب من حصافته ورهافة حاسة الشم لديه . وأمرت الحوذى أن يتجه حيث طلب منه الغريب . فمضت الخيل فى بطء فوق الجليد السميك . وأخذت المحفة تعلو وتهبط بين كثبان الجليد ووديانها وتترنح ذات اليمين وذات اليسار بحركة تشبه كثيراً حركة زورق فى بحر هائج

وجعل سافيلتش يزفر زفرات عميقة ويئن . وكلما ارتجت المحفة ارتمى فوقى بين لحظة وأخرى . فأنزلت سقف المحفة وتدثرت بمعطفى ونمت على هدهدة العاصفة

maktbtna.com

وحلمت وأنا نائم حلماً أستميح القراء أن أقصه عليهم لغرابته



الفصل الرابع

الحلم العجيب

يظهر أنى كنت فى حالة وسطى بين اليقظة والمنام ، حين تبدأ الحقيقة فى التلاشى بين طيات الأوهام والتخيلات . فرأيت الأعصار الثلجى مستمراً فى ثورانه . ونحن نتجول فى صحراء الجليد على غير هدى . وفجأة رأيت باباً كبيراً ثم دخلنا منه فاذا نحن فى فناء منزلنا الكبير

وكان أول ما خطر لى هو الخوف من غضب أبى لعودتى عن غير قصد منى الى دارنا . ظناً منه انى فعلت ذلك لعصيانه عن عمد

وخرجت وأنا فى حالة قلق شديد من المحفة فأبصرت والدتى تتقدم لملاقاتى وعلى محياها آثار حزن عميق . وقالت لى :

maktbtna.com

— لا تحدث ضجة . فان والدك يحتضر ويريد أن يودعك

فأصابنى الفزع ودخلت فى أعقابها الى مخدع النوم ونظرت فوجدت الحجرة ضئيلة الضوء جداً . وبالقرب من الفراش رأيت أشخاصاً واقفين وعلى وجوههم أمارات الكآبة والحزن فاقتربت على أطراف أصابعى . ورفعت أمى ستائر الفراش وقالت :

— يا اندرى بتروفتش . ها هو بطرس عاد . سمع بمرضك فرجع . هيا امنحه بركتك

مكتبتنا

فركعت على ركبتى وعلقت أنظارى بالمحتضر . ولكن ما هذا ؟! إن الذى أراه ليس أبى . بل انى أرى فى الفراش فلاحاً ذا لحية سوداء يرمقنى بنظرة تفيض بالابتهاج والدعابة . فملأتنى الدهشة والتفت الى أمى صائحاً :

— ما هذا وما معناه ؟ هذا ليس أبي . فلماذا تريدين مني أن أطلب البركة من هذا الفلاح ؟

فقالت أمي باصرار :

— إن المسألة واحدة يابطرس . فهذا هو والدك الروحي . قبل يده حتى يمنحك بركته

فلم أقبل ذلك . وإذا الفلاح يقفز من فراشه . فأرى فأساً مدلاة من حزامه . وخلع الفلاح الفأس من حزامه وراح يطوح بها على طول ذراعه في جميع الاتجاهات . فأردت أن أهرب . بيد انى لم استطع . وامتلأت الحجرة بجثث القتلى . وأنا أتخبط بينهم . وقدماى تنزلقان فى برك من الدماء

وناداني الفلاح البشع بصوت يسيل عذوبة ورقة قائلا :

— لا تخش شيئاً يا بتروشكا (بطرس الصغير) اقترب منى . تعال هنا حتى أضع عليك بركتى !

فاستطار قلبي فزعاً ودهشة . ولحسن الحظ استيقظت من غفوتى فى تلك اللحظة . فاذا الخيل وقفت عن السير وسافيلتش العجوز يربت على كتفى بلطف ويناديني بصوت حنون :

maktbtna.com

— هيا يا مولاى . تعال معى . فاننا قد وصلنا

فسألته وأنا أفرك عيني قائلا :

— وأين وصلنا الآن ؟

— الى مكان أمين . فان الله ترفق بنا وقاد خطانا الى سور هذا المنزل . أخرج يا مولاى من المحفة بسرعة وتعال كى تتدفأ بالنار



وغادرت المحفة فاذا العاصفة الثلجية مستمرة ولكن حدتها خفت قليلا عن ذى قبل . وكان الظلام حالكا حتى استعصت الرؤية تماماً

واستقبلنا رب البيت بالقرب من باب المدخل . وفى يده فانوس تحت طرف قفطانه . ثم أدخلنا الى حجرة صغيرة بيد أنها نظيفة . تضيؤها شعلة . وفى وسطها علقت بندقية طويلة وطاقية مما يرتديه أهل القوقاز

وعلمنا ان مضيفنا قوقازى من أهالى نهر يايك الذى يصب فى بحر أورال .

وهو فلاح فى نحو الستين من عمره لم تزل فيه قوة ونضرة

وحمل سافيلتش أدوات الشاى ثم طلب ناراً كى يصنع بضعة فناجين . والحق انى لم أكن فى حياتى بحاجة الى شاى ساخن كما كنت فى تلك اللحظة. وبادر المضيف الى اجابة الطلب

وسألت سافيلتش :

— وأين الدليل الذى قادنا الى هنا ؟

فسمعت صوتاً من فوق رأسى يجيبنى :

— إنى هنا ياصاحب السعادة

فرفعت عينى الى خزانة (صندرة) قرب سقف الحجرة فلمحت لحيةسوداء وعينين ثاقبتين فقلت :

— هل تشعر بالبرد ؟

— وكيف لا أشعر به ياصاحب السعادة وأنا لا أرتدى إلا قفطاناً رقيقاً كثير الثقوب ؟ كان عندى ملحفة . ولكن لا أخفى عنك انى تركتها رهناً بالأمس عند صاحب الحانة . لأن البرد كان يبدو لى غير شديد وأنا سكران . ولم تكن لدى نقود أوفيه حقه

maktbtna.com

وفى هذه اللحظة دخل مضيفنا ومعه « ساموفار » الشاى يهدر ماؤه . فعزمت على دليلنا بفنجان من الشاى . فنزل على الفور من موضعه . ورأيت مظهره الخارجي يسترعى النظر . فهو رجل فى نحو الأربعين من عمره . متوسط الطول . نحيف . بيد انه عريض المنكبين . وقد بدأ الشيب يخط لحيته السود. أما عيناه الواسعتان المتوقدتان فكانتا لا تستقران أبداً فى موضع . وشكله على العموم مستحب ولكنه يدل على خبث ومكر . وشعر رأسه محلوق حلاقة مستديرة كعادة القوقازيين . ولا يستر جسده إلا قميص هو فى الواقع قفطان قصير بال ممزق من تحته سروال واسع من سراويل التتار . قدمت اليه فنجان الشاى بيدى . فذاقه ثم بدا على وجهه الاشمئزاز الضحك وقال لى بلهجة لطيفة :

— لماذا الكذب يا صاحب السعادة ؟ إن الشاى ليس مشروبنا نحن أهل القوقاز . فتفضل علىّ بكأس من النبيذ أو الكونياك

وأجبته الى طلبه بارتياح . وقام مضيفنا فأخذ من دولاب به قارورة وكأساً واقترب منه . فلما حدق فى وجهه قليلا قال له :

— أهذا أنت مرة أخرى فى اقليمنا ؟ من أين ساقك الله إلينا ؟

فغمز دليلنا بعينه غمزة ذات معنى وقال :

— كان العصفور طائراً فى البستان . يأكل من حبوب الشعير والشوفان لكن الجدة العجوز قذفته بحجر لم يصبه ! ها ها ها ! وأنت كيف حالك حال ذويك أيها الأب الصغير ؟

فأجابه مضيفنا بأسلوب الكناية عينه على طريقة القوقازيين :

— كيف حالنا ؟ لقد بدأت نواقيس الكنيسة تدعو الناس الى القداس . ولكن زوجة القسيس منعت الصلاة وحالت بين الناس والدخول . وذهب القسيس لزيارة بعض الناس فظهرت العفاريت فى المقابر !

وسمعت دليلنا الأفاق يجيبه بلهجة أغرب :

— أسكت ناشدتك الله يا عم ! عند ما تهطل الأمطار . ستنبت أشجار جديدة . وعند ما تنبت الأشجار ستأتى طيور وتبنى عليها أعشاشها . أما الآن يا عم ..

وغمز بعينه مرة أخرى :

maktbtna.com

— فضع فأسك على ظهرك . وانتظر . فان حارس الغابات يتمشى الآن بين الأشجار بعين يقظة . اشرب هذه الكأس فى صحتك ياصاحب السعادة . وفى صحتك يا عم !

وتجرع كأسه مرة واحدة ثم تسلق كالقرد الى موضعه العالى بعد أن رسم على صدره علامة الصليب



ولم أستطع وأنا أسمع هذه الكلمات أن أتبين معنى للغة اللصوص هذه . ولكنى فيما بعد اضطررت أن أتذكر ذلك الحوار فأدركت انهما كانا يتكلمان عن شئون الجيش فى منطقة يايك . فزوجة القسيس هى القيصرة التى لا يرضى القوقازيون عن أعمالها بعد زوجها . مما أثار جيش يايك ثورة لم تخمد إلا بعد سنة ١٧٧٢

أما سافيلتش فكان يصغى لهذه المحاورة باستياء ظاهر . ويرمق بنظرات الشك والارتياب مضيفنا تارة والدليل الغريب تارة أخرى



maktbtna.com

« واستقبلنا رب البيت واقفاً فى مدخل الباب وفى يده فانوس »

وكان المنزل الذى التجأنا اليه فى صميم السهوب المترامية . بعيداً عن الطريق الكبير وعن جميع المساكن . فهو أشبه فى الحقيقة بملتقى لقطاع الطرق . ولكن ماذا كنا مستطيعين ؟ اننا لا يمكن أن نستأنف السير إلا بعد العاصفة . والحقيقة ان قلق سافيلتش وارتيابه كانا مصدر تسلية لى الى أن رقدت فوق الفرن الموقد ونمت . أما المضيف فنام على الأرض . وسرعان مانمنا نوماً عميقاً

maktbtna.com



الفصل الخامس

الجنرال

استيقظت فى اليوم التالى فى ساعة متأخرة . ولاحظت على الفور أن الإعصار قد انتهى . والشمس ساطعة . والجليد الناصع يمتد على مدى البصر كأنه ملاءة ضخمة

وكانت الجياد قد أسرجت فدفعت إلى مضيفنا بأجره . وقد طلب عن إيوائنا مبلغاً تافهاً جداً حتى ان سافيلتش نفسه لم يساومه فيه جرياً على عادته الثابتة . وكانت زهادة الطلب سبباً كافياً للقضاء على كل شكوكه التى ساورته بالأمس قضاء تاما

وناديت الدليل كى أشكره على الخدمة التى أداها لنا . وطلبت من سافيلتش أن يمنحه نصف روبل . فقطب سافيلتش حاجبيه وصاح :

— نصف روبل ! ولماذا ؟ ألأنك تنازلت شخصياً فسمحت له بالركوب فى محفتك لتنقذه من العاصفة حتى باب المنزل ؟ لتكن إرادتك يا مولاى . ولكننا فى الحقيقة لا نملك من المال ما نبعثر به نصف روبل هباء . وإذا درجنا على إعطاء الاكراميات لجميع الناس بنصف الروبل مرة واحدة ، فسيكون فى هذا موتنا جوعاً عن قريب

ولم يكن فى وسعى أن أناقش سافيلتش فى ذلك الصدد لأن جميع نقودى بناء على وعدى الصريح كانت تحت تصرفه . ومع هذا وجدت من غير المناسب ألا أتمكن من مكافأة الرجل الذى أنقذنى ، إن لم يكن من خطر الموت ، فعلى الأقل من مركز حرج جداً . ولهذا أجبت سافيلتش بكل هدوء :

— ليكن . إذا لم تكن راغباً فى إعطائه نصف روبل ، فأعطه شيئاً

من ملابسى . فثوبه خفيف جداً . أعطه مثلا عباءتى المصنوعة من جلد الأرنب !

فصاح سافيلتش وهو يكاد يلطم خديه :

— رحماك يا بطرس أندريتش يا أبى الصغير ! وما حاجته إلى عباءتك المصنوعة من فراء الأرنب ؟

— يتدثر بها ؟

— مستحيل . بل ان هذا الصعلوك سيشرب بها الخمر فى أول حانة يصادفها

فتولى الأفاق الاجابة قائلا :

— إن هذا يا شيخى الصغير ليس من شأنك . ما دخلك أنت إن شربت بالعباءة أو لم أشرب ؟ إن صاحب السعادة تكرم علىّ بخلعة من خاص ملبوسه . فلتكن إرادة سعادته . وواجبك أنت أيها العبد ليس الاعتراض أو التلكؤ . بل عليك السمع والطاعة فوراً

فقال له سافيلتش بغضب شديد :

maktbtna.com

— إنك لا تتقى الله أيها اللص قاطع الطريق ! إنك ترى هذا الطفل لم يستكمل بعد رشده . ومع هذا يطيب لك أن تنهبه مستغلا طيبة قلبه فما حاجتك إلى عباءة سيد نبيل ؟ إنك لن تستطيع ولن تعرف كيف تضعها على كتفيك الغليظتين !

فتدخلت فى المناقشة قائلا :

— لا تتعب نفسك ولا تتفلسف . أحضر العباءة بسرعة

فصرخ سافيلتش متأوهاً :

— رحمتك يارب ! يا مولى الموالى وسيد السادة ! عباءة من فراء الأرنب جديدة لم تلبس ! ولمن تعطيها ؟ لسكير عربيد صعلوك !

ومع هذا تم لى ما أردت وأحضرت العباءة . فشرع على الفور يرتديها . ولكنها كانت ضيقة عليه جداً فلم يلبسها إلا بصعوبة وبعد أن تفتقت جميع مواضع الحياكة . وكلما سمع سافيلتش صوت التمزيق تأوه بما يشبه أنين المرضى

ممزوجاً بعواء ذئب جريح !

أما الأفاق فكان ممتناً جداً من هديتى . وودعنى الى المحفة وانحنى الى الأرض وقال لى مودعاً

— شكراً لك ياصاحب السعادة . فليجزك الله خيراً على كرمك وأفضالك . فانى فى حياتى كلها لن أنسى مكارمك

ومشى هو فى طريقه . وسرت أنا فى طريقى غير ملق بالا الى تقطيب سافيلتش الشديد . وسرعان ما نسيت مع انطلاق الخيل بين سهوب الجليد ذكريات الإعصار ، والدليل ، وعباءتى المصنوعة من فراء الأرنب



ولما وصلت الى عاصمة المقاطعة أورنبورج توجهت على الفور الى الجنرال قائدها . فوجدته رجلا فارع الطول . بيد أن تقدم السن قوس ظهره قليلا . وشعره الطويل قد ابيض كله . وأمارته العتيقة تذكرنا بجنود عهد الأمبراطورة « آه » زوجة بطرس الأكبر . وأما ألفاظه فكان يطغى عليها النطق الألمانى

وقدمت إليه خطاب أبى . فلما قرأ إسمه رمقنى بنظرة سريعة وقال :

makthtna.com

— يا إلهى ! منـذ أمد وجيز فقط كان اندرى بتروفتش فى مثل سنك هذه . والآن يقولون إن له إبناً جميلا فى سن الشباب ! آه من الزمن

وفض الخطاب ثم راح يتلوه بصوت خفيض وهو يشطر عباراته بتعليقات من عنده.

— « سيدى . أتعشم أن تكون سعادتكم ... » ما كل هذه الرسميات ؟ يا للعار !. كيف لا يخجل من ذلك ؟ إنه بلاشك يجب مراعاة اعتبارات أقدمية وفروق الرتبة . ولـكن ما هكذا ينبغى أن يكتب الانسان إلى زميل قديم ! « إن سعادتكم لم تنسوا أيام كنا معا تحت إمرة الفيلد مارشان مونيخ . فى معركة ... » هيه هيه ... « وليالى لعبنا بالورق الى الصباح » إنه لم يذكر على كل حال شقاوات أهم بكثير . . . « والآن أرسل إليك إبنى العفريت كى تحكمه بقبضة من حديد ؟ لابد أنه تعبير روسى . أتفهم ماذا يعنى أبوك يا فتى ؟

فبادرت أقول له بكل سذاجة ممكنة :

— معنى هذا يا سيدى الجنرال أن تعاملنى برفق شديد . وتترك لى الكثير من الحرية

— احم . فهمت ... « فلاتترك له أى مجال للحرية واللهو » لا ياصاحبي يظهر أن القبضة الحديدية لهـا تفسير خلاف الذى قلته . . . « ومرفق بهذا براءة تعيينه منــذ حداثته فى الخدمة لتحديد أقدميته فى فرقة سيمينوفسكى . واسمح لى أن أقبلك من غير تكليف قبلة زميل وخل قديم » آه ! أخيراً تذكر عهود صداقتنا ... والآن هيا يا أبى الصغير. إن كل شىء سيتم لراحتك . وحتى لا نضيع الوقت ستذهب منذ الغد إلى قلعة بيلوجورسك . حيث تخدم تحت قيادة ميرونوف . وهو رجل شهم شجاع . هناك ستتعلم الخدمة العسكرية الحقيقية وتتعود النظام الصحيح . هذه رغبة والدك . فليس لك ما تفعله فى أورنبورج . لأن الملاهى شديدة الخطر على شاب صغير السن مثلك . أما اليوم يا صاحبي فانى أدعوك لتناول العشاء معى

فقلت فى نفسى :

— إن الأمور تنتقل من سىء إلى أسوأ . ألمثل هــذا فرحت بمغادرة بيت أبى ؟ وما قيمة تعيينى فى الجيش منذ حداثتى ؟ إن قلعة بيلوجورسك نائية جداً وفى منطقة مهجورة على حدود السهوب بين القرغيز والقوقاز

ولـكن لم تكن هنـاك حيلة لتغيير الأمور . فتناولت العشاء على مائدة الجنرال اندرى كارلوفتش . فى رفقة أركان حربه المسن . وكانت الرسميات تسود المائدة على الطريقة الألمانية الصارمة . واعتقد أن دعوة غلام مثلى الى مائدة هذا الجنرال الشيخ كانت من التقاليد المـألوفة مقدمة للابعاد فى قلعة نائية على تلك الصورة . كأنها تعزية أو تكريم

وفى اليوم التالى حييت الجنرال مودعاً واتجهت مع سافيلتش الى محل عملى البعيد عن العمران . وأنا بعد فى السابعة عشرة

الفصل السادس

القلعة

تقوم قلعة بيلوجورسك على مسافة أربعين فرسخاً من أورنبورج عاصمة الاقليم . والطريق من تلك المدينة يسير محاذياً لشواطىء نهر يابيك المتعرجة . ولم يكن النهر قد تجمد بعد . فكانت مياهه تتدفق قاتمة اللون كأنها رصاص مصهور بين شواطىء بيضاء ناصعة مغطاة بالجليد

وكانت السهوب من حولى تمتد . وهى السهوب المعروفة بسهوب القرغيز . فساعد منظرها المتشابه على استغراقى فى خواطرى وهى خواطر حزينة فى مجموعها . ذلك أن حياة الثكنات والمعسكرات لم تكن ذات فتنة أو جاذبية لى . وحاولت أن أتصور رئيسى الجديد القائد ميرونوف فتخيلته شيخاً قاسياً عبوساً لا يدرى شيئاً خارج أمور الخدمة . وهو دائماً على استعداد للقبض على وحبسى لأتفه مبرر

maktbtna.com

وكان الغسق يدنو منا ونحن نمضى فى طريقنا مسرعين . فسألت السائق :

— هل نحن بعيدون عن القلعة ؟

— بل نحن نراها من هنا

فأخذت أنظر فيما حولى من جميع الجهات . منتظراً أن أرى أبراجاً عالية وأسواراً وفندقاً . فلم أبصر سوى قرية صغيرة يحيط بها سور خشبي مثل أسوار البساتين . وفى ناحية منها رأيت أربعة أكوام من التبن غطى الجليد معظمها . وفى الناحية الأخرى طاحونة تدور بالريح ، وهى مائلة قليلا : وأذرعها الخشبية غير المنتظمة يبدو عليها الخمود منذ زمن . فسألته بدهشة :

— ولكن أين القلعة يا رجل ؟

فأجاب الحوذى وهو يشير إلى القرية :
— هذه هى
وفى هـذه اللحظة بدأنا ندخل فى حدودها . فرأيت عند الباب مدفعاً عتيقاً من الحديد . وكانت الشوارع ضيقة ملتوية . وجميع أكواخ الفلاحين مغطاة بالحطب والقش . فأمرت الحوذى أن يتوجه بى إلى القائد . وعلى الفور وقفت محفق أمام منزل مشيد بالخشب فوق ربوة صغيرة بالقرب من الكنيسة . والكنيسة أيضاً مشيدة من الخشب
ولم يخرج أحد لملاقاتى . فدخلت من الشرفة الأمامية الى حجرة الجلوس وهناك رأيت عجوزاً مقعداً . جالساً إلى مائدة يحيك قطعة من القماش الأزرق ليرقع بها كوع سترة عسكرية خضراء . فطلبت منه أن يعلن قدومى فقال :
— أدخل يا أبى الصغير . فأهل الدار بداخلها
فدخلت حجرة نظيفة جداً . مرتبة على النسق القديم وفى ركن منها دولاب به آنية . وقد علق على الجدار فى برواز براءة رتبة الضابط . وحول الإطار بضع تصاوير تمثل مواقع وأساطير . وبالقرب من النافذة رأيت عجوزاً جالسة وقد غطت رأسها بمنديل . وهى مشغولة بفك حزمة من الخيوط يحملها بين كفيه المتباعدين شيخ أعور قصير القامة فى ثياب الضباط
maktbtna.com
وسألتنى العجوز من غير أن تقطع سير عملها
— ماذا تريد يا أبى الصغير ؟
فأجبتها أننى قادم لتسلم عملى فى الخدمة العسكرية . وإننى على حسب الأصول حضرت لأقدم نفسى للسيد القائد
وفيما أنا أقول هذه العبارة ألتفت إلى ناحية الأعور القصير الذى حسبته القائد . بيد أن العجوز الطيبة قطعت على خطبتى التى كنت قد أعددتها من قبل قائلة :
— إن إيفان كوزمتش (أى ابن قزمان) ليس فى البيت الآن . فقد ذهب لزيارة القسيس الأب جراسيم . ولكن لا بأس . أنا امرأته وأنوب عنه . أرجو أن تأنس إلينا وتطيب لك عشرتنا يا أبى الصغير . تفضل بالجلوس
ونادت الخادمة وأمرتها باستدعاء صول القوزاق (وهم عساكر القوقاز) .
أما الشيخ القصير الأعور فرمقنى باستطلاع بعينه المفردة وقال :
مكتبتنا

— هل تسمح لى أن أسألك فى أى فرقة سبقت لك الخدمة ؟
فقلت له إنى مقيد فى الحرس القيصرى . فقال :
— ولماذا فضلت الانتقال من الحرس الى حاميتنا المتواضعة ؟
- إن هذه هى الأوامر
فعاد هذا السائل اللحوح يقول :
— أوامر ؟ ربما كانت هذه الأوامر صدرت مثلا بعد تصرفات اعتبرت غير لائقة من ضابط فى الحرس ؟
وتولت زوجة القائد الرد عنى قائلة :
— هل لك أن تكف عن هذه المساخر ؟ إنك ترى بنفسك أن هذا الشاب متعب من سفره الطويل . ولديه شىء يشغله خلاف الرد على أسئلتك الفارغة . إرفع يديك جيداً
ثم تحولت إلى جهتى وقالت :
— وأنت يا أبى الصغير لا تحزن كثيراً لأنهم نفوك إلى ركننا الموحش . فأنت لست أول منفى ولن تكون الأخير . إننا نقاسى هنا . ولكن مع التعود تسهل الحياة . فمثلا عندنا هنا الضابط شفابرين . نقلوه منذ أربع سنوات لأنه اقترف جريمة قتل . والله أعلم كيف نزلت عليه هذه المصيبة . لأنهم رأوه ملتحما ذات يوم مع ملازم من زملائه فى مبارزة بالسيف . وقتل شفابرين الآخر . ولو لم يفعل لقتله الآخر . وتصور أن الأحمق فعل ذلك أمام شاهدين فوقعت عليه البلية ونفوه إلى هنا منذ أربع سنوات
وفى هذه اللحظة دخل الصول وهو شاب قوقازى جميل . فقالت له زوجة القائد :
— إسمع يا مكسيمتش (أى ابن مكسيم) دبر مسكناً للسيد الضابط . وليكن شيئاً نظيفاً لائقاً
فأجابها الصول قائلا :
— أمرك يا فاسيليسا يوجروفنا (أى بنت يوجور) ألا ترين أن يشارك فى المسكن إيفان ؟
— أتهذى يا مكسيمتش ؟ أن إيفان يشكو من ضيق مسكنه . اذهب

maktbtna.com
مكتبتنا

بالسيد الضابط ... ما اسمك يا أبى الصغير ؟

— بطرس اندرى يتش (أى ابن اندرى)

— اذهب يبطرس اندرى يتش لدى سيميون قوزوف وبهذه المناسبة ترك ذلك الوغد حصانه يدخل حديقة خضرواتى فلا تنس أن تفعل معه اللازم ثم هل كل شيء على التمام يا مكسيمتش ؟

— بحمد الله . كل شيء هادىء . فيما عدا . . .

— فيما عدا ماذا يا مكسيمتش ؟

— فيما عدا أن الأومباشي بروكوروف ضرب فى الحمام المرأة أوستينيا

— ولماذا ضرب المرأة المسكينة يا مكسيمتش ؟

— اختلفا على جردل ماء ساخن

فنظرت زوجة القائد إلى العجوز الأعور وقالت بحزم :

— عليك يا إيفان اينيافتش أن تفصل فى هذه القضية . وتبلغنى من منهما المخطىء . ولكن عليك أولا أن تعاقب الاثنين لاجترأهما على التشاجر وتخطى السلطة

— هل أقوم الآن ؟

maktbtna.com

— الخيوط أولا . والقضية بعد ذلك . وأنت يا مكسيمتش اذهب بحفظ الله . وقم معه يا بطرس اندرى يتش ليقودك إلى مسكنك

فاستأذنت وقادنى الصول الى كوخ فلاح مقام على شاطىء النهر فى الطرف الأقصى من القلعة . ونصف الدار يسكنه آل سيميون كوزوف . والنصف الآخر هو الذى حللت فيه . وهو يتكون من حجرة نظيفة مقسومة إلى جزأين بحاجز خشبي وشرع سافيلتش على الفور يرتب حوائجنا هناك . أما أنا فوقفت أنظر من النافذة الضيقة

مكتبتنا

ورأيت السهوب مترامية أمامى قاحلة حزينة . ومن الجهة الأخرى الأكواخ والدجاج يتجول فى الطريق . وفلاحة عجوز تنادى على خنازيرها فيردون عليها بأصوات غليظة . وفى هذا الإطار حكم علىّ أن أمضى شبابى . فاستولى الاكتئاب المرير على نفسى . وتركت النافذة ورقدت على فراشى من غير عشاء ، معرضاً عن توسلات سافيلتش أن آكل شيئاً حتى لا أمرض

الفصل السابع

القـــائد

وفى صباح اليوم التالى لم أكد أشرع فى ارتداء ثيابى حتى انفتح باب الحجرة ودخل ضابط شاب قصير القامة ، ملامحه غاية فى الدقة والتناسق . ولكن وجهه ينبيء عن حيوية فائقة . وخاطبنى بالفرنسية قائلا :

— لاتؤاخذنى على حضورى اليك هكذا من غير تكليف لأتعرف اليك . فقد بلغنى بالأمس نبأ وصولك . فاستبدت بى الرغبة أن تقع عينى أخيراً على سحنة آدمية . حتى انى لم أستطع صبراً أكثر من ذلك . وسوف تفهم شعورى هذا عندما يمضى على إقامتك هنا بعض الوقت

فأدركت بلا صعوبة أن هذا الضابط هو الذى طرد من الحرس بسبب المبارزة . وتعارفنا فوجدت فى شفابرين سرعة بديهة ولباقة . وكان حديثه جذاباً طلياً . وأخذ يصور لى ببراعة فائقة ودعابة مستملحة أفراد أسرة القائد . وبيئته . وجميع العناصر التى تتكون منها البيئة التى حكم علىّ أن أنفى اليها بغير ذنب

وضحكت من كل قلبي عندما دخل ذلك الجندى المحطم الذى كنت رأيته يرقع السترة عند باب القائد . دخل ليدعونى للغذاء مندوباً من زوجة القائد فاسيليسا يوجوروفنا . فأعلن شفابرين أنه سيصحبنى الى هناك

ولما اقتربنا من دار القائد رأينا فى الميدان نحو عشرين من الشيوخ المشوهين بعاهات وقد ارتدوا سترات عتيقة واصطفوا فى طابور . ووقف أمامهم القائد . وهو كهل طويل القامة فيه بقية من عافية . مرتدياً روب النوم وفوق رأسه طرطور من الصوف يستعمله الفلاحون للنوم شتاء

maktbtna.com

وما ان وقع بصر القائد علينا حتى اقترب منا ووجه إلىّ بضع كلمات ترحيب رقيقة ثم استأنف إلقاء أوامر التدريب لطابوره الهيب . وبقينا لنشاهد المناورات . بيد أنه رجانا أن نذهب فوراً لأن فاسيليسا زوجته تنتظرنا ، ووعد أن يلحق بنا فوراً قائلا :

— ليس هنا ما يستحق المشاهدة

واستقبلتنا فاسيليسا ببساطة وطيبة قلب حقيقيتين . وعاملتنى كأنها تعرفنى منذ زمن طويل . وقام الجندى المتقاعد هو والخادمة بلاشكا بإعداد المائدة . وقالت فاسيليسا عندئذ :

— ما الذى جرى اليوم لإيفان كوزمتش حتى يستغرق كل هذا الوقت فى تدريب قواته ؟ اذهبي يا بلاشكا واستدعيه للغذاء . ولكن أين ماشا ؟

و « ماشا » هو تصغير « مارى » للتدليل باللغة الروسية

وما نطقت الأم بهذا السؤال حتى دخلت الحجرة فتاة فى السادسة عشرة . مستديرة الوجه . حنطية اللون . وقد عقصت شعرها المجعد وراء أذنيها المحمرتين من الحياء والارتباك

ولم تعجبنى كثيراً لأول نظرة . فنظرت اليها بفتور . وكان شفابرين قد وصف لى « ابنة القائد » وصفاً تصويرياً يدل على أنها بلهاء تقريباً

وجلست مارى ايفانوفنا (أى ابنة إيفان) فى ركن وشرعت تشغل نفسها بحياكة شىء فى يدها . ثم أحضرت الخادم قصعة حساء الخضر باللحم الذى يسميه الروسيون «شتشى» . ولما رأت فاسيليسا أن زوجها لم يعد أرسلت اليه بلاشكا مرة ثانية

— قولى لسيدك إن الضيوف فى الانتظار . وان الشتشى سيبرد . وقولى له أيضاً إن التدريب بعون الله لن يهرب . وان الجنود لن يفلتوا منه . وأمامه وقت فسيح جداً لشق حنجرته بالنداءات العسكرية على مهل بعد الغداء

وفعلت هـذه الرسالة مفعولها . فسرعان ما ظهر القائد يصحبه العجوز الأعور القصير . فابتدرته زوجته قائلة :

— ماهذا يا أبى الصغير . إن المائدة موضوعة منذ وقت طويل . وليست هناك وسيلة لإقناعك بالحضور

فرفع القائد سبابته فى الهواء وقال :

maktbtha.com
مكتبتنا

— ترين يا فاسيليسا يوجوروفنا أنى كنت مشغولا بأمور الخدمة . كنت أدرب جنودى الصغار

فأشارت بكفها إشارة مثبطة وقالت :

— إجلس اجلس . ! هذا كله من قبيل التظاهر الكاذب ! جنودى الصغار ! إن التدريب غير مجد معهم . ولا يناسب صحتهم . وأنت أيضاً لا تفقه فيه شيئاً . وكان خيراً لك ولهم أن تبقى فى عقر دارك تسبح ربك الرحمن ! كان هذا أفضل . والآن يا أعزائى الضيوف . تفضلوا !

فجلسنا حول المائدة . ولم تسكت فاسيليسا يوجوروفنا لحظة واحدة . بل ظلت تمطرنى بالأسئلة . من أبواى ؟ وهل هما على قيد الحياة ؟ وأين يقيمان ؟ وما مقدار ثروتهما ؟

ولما عرفت أن أبى يملك ثلاثمائة فلاح من الرقيق ، صاحت :

— أترون ؟ . فى الدنيا قوم أثرياء ! أما نحن يا أبى الصغير فلا نملك من الأرقاء إلا هذه الخادمة بلاشكا . ولكن نحمد الله على أننا نعيش فى حدودنا . يوماً بيوم . ولا يكربنا هم سوى ابنتنا ماشا . فالبنت فى سن يجب أن نزوجها فيه . ولكن أى بائنة لها ؟ . مشط واحد وقبقاب بشرفك وأربعة سنتيمات لا تكفى لاستحمامها مرتين فى السنة . ! هذا إذا وجدت رجلا طيباً يرتضيها لنفسه ! أما إن لم تجد فستبقى كما هى الآن عانساً !

وألقيت نظرة على مارى ايفانوفنا فوجدت وجهها صار أحمر قانياً . والدموع تنحدر من عينيها الى طبقها فأخذتنى الشفقة بها . وأسرعت أغير موضوع الحديث . فصحت فجأة :

— لقد سمعت أن عشيرة البشكير فى نيتهم مهاجمة قلعتكم !

فقال ايفان كوزمتش :

— من الذى قال لك هذا يا أبى الصغير ؟

— سمعته وأنا فى أورنبورج

— تخريفات . . إننا لم نسمع من ناحيتهم شيئاً مطلقاً . فالبشكير عشيرة هادئة . والفرغز أنفسهم تلقوا دروساً قاسية . فلن يجسروا على مهاجمتنا . وإن حدثتهم نفسهم بذلك . سيكون عذابنا فظيعاً لهم ليكفوا عن الحراك مقدار عشر سنين

maktbtna.com
مكتبتنا

فوجهت الكلام إلى زوجة القائد قائلا :

— وأنت ؟ ألا تخشين البقاء فى القلعة معرضة لهذا الخطر وأمثاله ؟

— مسألة تعود يا أبى الصغير . فمنذ نحو عشرين سنة انتقلنا الى هذا المكان . ولا يمكنك أن تتصور كيف كنت يومئذ خائفة من الأهالى الكفار . فما كنت ألمح طاقية أحد منهم أو أصوات صياحهم المنكرة حتى يقفز قلبي بين ضلوعى . أما الآن فقد تعودت كل شىء . حتى لا تتحرك عضلة فى جسمى إن قالوا لى إن قطاع الطرق يحومون حول القلعة

وعلق شفابرين بكل جد قائلا :

— إن فاسيليسا يوجوروفنا سيدة باسلة جداً . وقائدنا ايفان كوزمتش يعرف عن ذلك الشىء الكثير

— طبعاً طبعاً . زوجى شجاعة جداً

— ومارى ايفانوفنا . هل هى شجاعة مثلك يا سيدتى ؟

— ماشا ؟ إنها جبانة جداً . لا تسمع حتى الآن طلقة بندقية إلا وترتعد جميع فرائصها . ومنذ عامين خطر لإيفان كوزمتش فى يوم عيدى أن يطلق مدفعه العتيق لتحيق بخافت الحمامة الوديعة خوفاً فظيعاً حتى أوشك الخوف أن يقضى عليها فعلا . ومنذ ذلك اليوم ونحن لا نطلق المدفع الملعون أبدا

ونهضنا من المائدة . فدخل القائد وامرأته للقيلولة . أما أنا فذهبت الى مسكن شفابرين حيث أمضينا معاً أمسية لطيفة فى السمر والمنادمة

maktbtna.com



الفصل الثامن

التحدى

مرت بضعة أسابيع كانت فيها حياتى فى قلعة بيلوجورسك لا محتملة فحسب، بل مرضية أيضاً ومستحبة . إذ أصبحت عضواً فى بيت القائد كأنى فرد من أسرته . وكان الزوج والزوجة من خيار الناس

وعرفت ان ايفان كوزمتش كان فى بداية عهده جندياً نفراً . ثم وصل باجتهاده وجده الى رتبة الضابط . بيد انه ظل رجلا ساذجاً جداً بلا ثقافة أو صقل ، ومع هذا فهو طيب القلب مخلص . وامرأته هى التى تسوسه . وما كان ذلك يغضبه ، لأنه كان يتفق جداً مع كسله الطبيعى

نعم كانت فاسيليسا يجوروفنا هى التى تسوس أمور الفرقة وأمور البيت معاً ، تأمر وتنهى فى القلعة كلها كما تأمر وتنهى فى بيتها

maktbtna.com

أما مارى ايفانوفنا فسرعان ما تخلت عن نفارها وانزوائها فتوثقت بيننا المعرفة . ووجدت فيها فتاة عاقلة ذات قلب كبير . ورويداً رويداً ازداد ارتباطى بهذه الأسرة بل وأيضاً بايفان ايناتتش الملازم الماكر الأعور

وبتقلدى رتبة الضابط فى القلعة لم أجد مايشغلنى . ففى هذه القلعة المباركة من الرب لا وجود للطوابير ولا للدوريات أو نوبات الحراسة والتفتيش . وبطبيعة الحال لا وجود كذلك للاستعراضات . وكل ما هناك ان القائد كان يعن له أحياناً أن يدرب جنوده الصغار لمزاجه الخاص ، وهو بثياب النوم

ونستطيع أن نقدر مدى نجاح هذا التعليم من ظاهرة واحدة . انه لم يفلح بطول المدة أن يجعلهم يميزون بين الى اليمين در والى اليسار در !

وكانت لدى شفابرين بضع مؤلفات باللغة الفرنسية . فأخذت فى القراءة

وتنبهت فى نفسى الحاسة الأدبية . فكنت أقرأ طول الصباح . وأحاول ترجمة بعض الفقرات . ثم أقدمت على محاولة نظم الشعر . وفى المساء كنت أتعشى على مائدة القائد كل يوم تقريباً وأمضى السهرة هناك طبعاً

وكان الأب جراسيم يأتى فى السهرة لدى القائد ومعه زوجته أكولينا التى كانت أعظم ثرثارة فى الجوار كله . لا تكف عن الكلام طول الجلسة

وبطبيعة الحال كنت أقابل كل يوم صديقى الجديد شفابرين الذى شغفنى منذ البداية بطلاوة حديثه . ولكن من الغريب ان حديثه قلت جاذبيته عندى يوماً بعد يوم وساعة بعد ساعة . فتهكمه المستمر بأسرة القائد ولاسيما ملاحظاته اللاذعة على حساب مارى ايفانوفنا ، كان يؤلمنى جداً . إذ لم يكن هناك مجتمع آخر لنا غير تلك الأسرة فى القلعة . بل وفى الوقت نفسه كنت لا أتمنى لنفسى مجتمعاً سواهم

وخيب البشكير جميع الظنون فلم يثوروا . وظل الهدوء سائداً حول قلعتنا . الى أن حدثت داخل القلعة حرب أهلية عكرت السلام فيها فجأة

وتفصيل الخبر أننى كنت أعالج نظم الشعر . وذات يوم نظمت مقطوعة صغيرة كنت راضياً عنها جداً . ومن المعروف ان المؤلفين يبحثون دائماً عن مستمع لأعمالهم أو قارىء متساهل ، تحت ستار طلب الرأى أو النقد . وقد قمت بتبييض قصيدتى الصغيرة وحملتها الى شفابرين الذى كان وحده بين أهل القلعة جديراً بالحكم على عمل شعرى

وبعد مقدمة قصيرة أخرجت قصيدتى من جيبى وقرأت له الأبيات التالية :

« إنى للأسف أتحاشى ماشا ، عسى أن أسترد بذلك حريتى

« بيد ان العيون التى أسرتنى ، تتراءى دائماً أمامى

« إنك أنت يا ماشا التى تعلمين عذابى

« فارحمى أسيرك من هذه الحال السقيم »

وسألت شفابرين وأنا أنتظر منه الاطراء العريض

— ما رأيك فى هذا الكلام ؟

ولاستيائى الشديد أجابنى على خلاف عادته فى المجاملة ان قصيدتى لا تساوى شيئاً . فسألته وأنا أغالب غيظى :

— ولماذا ؟

maktbtna.com

— لأنها لا تليق إلا بشاعر سخيف فدم

وتناول من يدى الورقة وراح يحلل كل بيت تحليلا قاسياً . بل كل كلمة . بصورة مزقت شعورى تمزيقاً قاسياً . حتى زاد الأمر عن طاقة احتمالى . وانتزعت الورقة من يده وأعلنته انى لن أطلعه طول حياتى على شىء من تأليفى. فسخر من هذا التهديد وقال لى :

— اسمع يا صاح ! انك لن تستطيع تنفيذ هذا الوعيد

— ولماذا ؟

— لأن الشعراء بحاجة دائماً الى مستمع . مثل حاجة ايفان كوزمتش الى كأس من الكونياك قبل العشاء . ثم من هى « ماشا » هذه ؟ أليست مارى ايفانوفنا ؟

فقطبت حاجبي وقلت له :

— ليس من شأنك أن تعرف من هى ماشا . فلا حاجة بى الى آرائك ولا الى تخميناتك

— يا للشاعر المتعجرف ! إسمع نصيحة صديق . إن ماشا ليست جديرة أن تغدو زوجة لك

maktbtna.com

فصرخت فيه بغضب شديد :

— أنت تكذب يا حقير !.

فاكفهر وجه شفابرين وهو يشد على يدى بقوة :

— لن ينتهى الأمر هكذا . لا بد أن تعتذر أو تبارزنى

فأجبته بسرور عظيم :

— فى أى وقت شئت سأبارزك

والواقع انى كنت أرحب فى تلك اللحظة بتمزيقه إرباً . وجريت على الفور الى ايفان اينياتتش الذى وجدته وفى يده إبرة ، يحيك بها بعض الخضر ليصنع منها حبلا تجف فيه لمئونة الشتاء ، على حسب أمر القائدة . فلما رآنى قادماً قال لى :

مكتبتنا

— مرحباً بك يا بطرس . ما الذى جاء بك ؟

فوضحت له فى كلمات قليلة انى اختلفت مع شفابرين . ولهذا أريد منه أن يكون شاهدى فى المبارزة . وظل ايفان ساكتاً الى النهاية مصغياً بكل اهتمام

وهو يرمش بعينه الواحدة . ثم قال لى :

— تريد أن تقتل شفابرين . وأن أشهد على ذلك ؟ أهذا ما تعنيه ؟

— بالضبط ..

— ولكن ما الذى جرى لعقلك يابطرس ؟ أنت تبادلت الاهانات مع شفابرين . هذا مفهوم . شيء جميل ! والاهانة شيء لايعلق فى العنق ولا يراه أحد . فان كان شتمك فاشتمه . وإن صفعك اركله . وإن زاد زد . ثم ليذهب كل منكما الى حال سبيله . وعلينا نحن أن نصلح ذات البين فيما بعد . أما الآن فأى خير فى قتل انسان ؟ ثم لا تنس انه ليس من المضمون أن تكون أنت القاتل ، فقد تكون المقتول . فأنا شخصياً لا أحبه أبداً . سامحه الله . وكل ما أخشاه أن يصرعك ، لا أن تصرعه

ولم تفلح حجج الضابط الكهل الحذر فى زعزعة اعتقادى . فظللت عند رأيى

— أنت حر يا بطرس اندريتش . افعل ما يروق لك . ولكن ما فائدة وجودى شاهداً فى مبارزتكما ؟ وأى غرابة فى أن يتضارب الناس حتى يحتاجوا لشهود ؟ إن هذا شيء مألوف جداً لرجل مثلى حارب الأتراك والسويديين

وحاولت أن أدخل فى رأسه واجبات الشاهد . ولكن ايفان اينياتتش رفض أن يفهم وقال لى :

— إفعل ما بدا لك . فانى إن تدخلت فى هذا الموضوع . فسيكون هذا على صورة تبليغ الخبر الى ايفان كوزميتش . حسب التعليمات العسكرية . فمن الممنوع أن تحدث فى القلعة أعمال إجرامية ضارة بمصلحة التاج . ومن واجب القائد أن يتخذ الاجراءات الكفيلة بالحيلولة دون ذلك

واستولى على الخوف فرجوت ايفان اينياتتش ألا يخبر القائد . وبصعوبة كبيرة تمكنت من تهدئته . وانتزعت منه وعداً ألا يخبر القائد . ثم تركته وانصرفت

makthbtna.com
مكتبتنا

الفصل التاسع

المبارزة

وكالعادة قضيت السهرة فى بيت القائد . واجتهدت أن أبدو هادئاً مرحاً . حتى لا أثير أى شبهة وأتجنب الأسئلة المحرجة . ولكنى أعترف أنى لم أكن أملك رباطة الجأش التى يتفاخر بها أشخاص أوجدتهم الظروف فى مثل موقفى . بل كنت طول السهرة شديد الحساسية ميالا للرفق والحنو . وبدت لى مارى إيفانوفنا أكثر جاذبية من المعتاد . ولعل فكرة أننى ربما أراها لآخر مرة هى التى أضفت عليها سحراً خلاباً فى نظرى ولم أحس بميلى إليها كما أحسست تلك الليلة

ودخل شفابرين . فانتحيت به جانباً وأخبرته بما جرى بينى وبين إيفان انياتتش . فقال لى بخشونة :

maktbtna.com

— وما لزوم الشهود ؟ سنتجاوز عنهم

واتفقنا على أن نتبارز خلف أكوام التبن غداً صباحاً فى الساعة السادسة . ولما لحنا إيفان انياتتش تتحدث على انفراد بتفاهم تام سر كثيراً وأوشك أن يفضحنا حين قال لى :

— كان ينبغى أن تفعل ذلك منذ زمن طويل . أما علمت أن صلحاً سيئاً أفضل بكثير من قطيعة طيبة ؟

وسمعت زوجة القائد هذه العبارة فقالت :

— ماذا ؟ ماذا تقول يا إيفان إنياتتش ؟ إنى لم أفهم جيداً مقصودك

ولم يدر ماذا يقول . فبادر شفابرين لانقاذه قائلا :

— إنه يحبذ الصلح الذى عقدناه

— ومع من كنت متخاصما يا أبي الصغير ؟

— مع بطرس اندريتش . ووصل الأمر إلى التشاتم

— ولكن لماذا ؟

— بسبب شيء تافه . قصيدة . أغنية

— سبب وجيه لمشاجرة ! وكيف حدث ذلك ؟

— إليك التفصيل . نظم بطرس اندريتش أخيراً أغنية . وأخذ يغنيها لى هذا الصباح . ووجدتها رديئة وصارحته بذلك . فغضب بطرس اندريتش . وأخيراً اقتنع بعد مراجعة نفسه أن كل إنسان حر فى رأيه

وغاظتنى صفاقة شفابرين . ولكن أحداً سواى لم يفهم رموزه الغامضة . وانتقل الحديث من أغنيتى إلى الكلام عن الشعراء عموماً وقال القائد إنهم جميعاً طائفة من الماجنين العربدين لا خير فيهم . ثم نصحنى برفق أن أتخلى عن نظم الشعر لأن ذلك مخالف لروح الخدمة العسكرية ولا يؤدى الى شيء صالح فى الحياة .

وثقل على نفسى محضر شفابرين فاستأذنت بسرعة من القائد وأسرته وعدت الى البيت . وهناك فحصت سيفي وتأكدت من مضائه . ثم رقدت بعد أن أمرت سافيلتش أن يوقظنى فى الساعة السادسة

maktbtna.com



وفى الصباح كنت فى الساعة المحددة خلف أكوام التبن فى انتظار غريمى ولم يلبث أن أقبل فبادرنى قائلا :

— هيا بنا بسرعة قبل أن يفاجئونا

خلعنا سترتينا وبقينا بالصدار وامتشقنا سيفينا . وفى هـذه اللحظة ظهر إيفان انياتتش ومن ورائه خمسة من مشوهى الحرب، من وراء أحد أكوام التبن وواجهنـا بأمر الاعتقال والتوجه لدى القائد . فأطعنا على مضض . وأحاط الجنود بنـا ثم تبعنا إيفان انياتتش الذى قاد الموكب ظافراً بخطوة عسكرية ووقار لا نظير له

ودخلنا منزل القائد ، ففتح إيفان انياتتش الأبواب على مصراعيها وصاح

— ضبطناهما وظفرنا بهما !

مكتبتنا

فأسرعت فاسيلسا يوجوروفنا لملاقاتنا قائلة :

— ما معنى هـذا الكلام ؟ أتدبران جريمة قتل فى قلعتنا ؟ يا إيفان كوزميتش . أقبض عليهما فى الحال وأحبسهما . . . يا بطرس أندريتش وشافرين . سلمانى سيفيكما . أعطيانى السيفين . هات . وأنت أيضاً هات . خذى يا بلاشكا ضعى السيفين فى مخزن القمح . إنى لم أكن أنتظر يا بطرس أندريتش أن يحدث منك شيء كهذا . كيف لم تخجل من نفسك ؟ ان شافرين غيرك أنت . فهو منقول من الحرس لأنه أزهق نفساً بريئة . ثم أنه كافر لا يؤمن بإلهنا . أما أنت ...

وكان إيفان كوزميتش يؤمن على كل ما تقوله زوجته ويكرر دائماً

— فاسيليسا يوجوروفنا على حق . ما تقوله صحيح . فالمبارزات ممنوعة منعاً باتاً بنص اللائحة العسكرية

وأخذت بلاشكا سيفينا إلى مخزن القمح . فلم أستطع أن أكتم الضحك . أما شفابرين فاحتفظ بكل وقاره وقال بهدوء لزوجة القائد :

— مع كل احترامى لك . لا أستطيع أن أعفى نفسى من توجيه نظرك الى أن تدخلك بالتحكيم فى موضوعنا لا فائدة منه . فمحكمتك غير مختصة . أتركى الأمر لإيفان كوزميتش . فهذا شأنه

— ماذا ماذا ؟ يا أبى الصغير ؟ أليس الزوج والزوجة جسداً واحداً وروحاً واحدة ؟ ماذا تنتظر يا إيفان كوزميتش ؟ أحبس كلا منهما فى ركن منعزل . واجعله يعيش على الخبز القفار والماء إلى أن تخرج هذه الفكرة اللعينة من رأسيهما . وليحضر الأب جراسيم لكى يفرض عليهما كفارات التوبة . يجب أن يطلبا الغفران من الله والناس بسبب هذا الذنب العظيم

ولم يدر إيفان كوزميتش ماذا يصنع . أما مارى إيفانوفنا فشحب وجهها شحوباً بالغاً . ورويداً رويداً هدأت العاصفة وأمكن التفاهم نوعاً مع زوجة القائد . وإذا بها تأمرنا أن نتعانق ثم أحضرت بلاشكا سيفينا وخرجنا بعد أن تصالحنا فى الظاهر . وصحبنا إيفان اناتتش إلى الخارج فقلت له بغضب :

— كيف لا تخجل من نفسك لأنك وشيت بنا للقائد بعد أن تعهدت لى ألا تفعل ذلك ؟

— أقسم لك بالله أنى لم أقل شيئاً لإيفان كوزميتش . بل قلت لفاسيليسا

يوجوروفنا . وهى التى اتخذت جميع الاجراءات بالنيابة عن القائد . والحمد لله أن المسألة انتهت هكذا

وبعد ذلك عادت إيفان انياتتش الى بيته وبقيت وحدى مع شفابرين فقلت :

— ان مسألتنا لم تنته هكذا

— طبعاً ستدفع لى ثمن إهانتك من دمك . ولكنهم سيراقبوننا فيجب أن نتصنع المودة بضعة أيام . الى الملتقى

وافترقنا كأن شيئاً لم يحدث . ولما رجعت إلى بيت القائد جلست حسب عادتى بجوار مارى إيفانوفنا . ولم يكن أبوها فى البيت . وكانت أمها مشغولة فى المطبخ . فجعلنا نتحدث بصوت منخفض . فلامتنى مارى إيفانوفنا لما سببته لها من القلق بمشاجرتى مع شفابرين :

— غاص قلبي عندما قالوا لنا أنكما ستتبارزان بالسيف . ما أعجب الرجال ! أمن أجل كلمة يمكن أن ينسوها فى الأسبوع التالى يبادرون الى التقاتل والذبح والتضحية لا بحياتهم فحسب ، بل أيضاً بشرف وسعادة هؤلاء الذين ... ولكنى واثقة أنك لم تبدأ المشاجرة ، بل كان شفابرين هو المعتدى

maktbtna.com

— وما الذى يحملك على هذا الظن يا مارى إيفانوفنا ؟

— ولكن لأنى ... لأنه ... لأنه شديد السخرية صليط اللسان . وأنا لا أحبه . بل أكرهه

— وماذا تظنين أنت يا مارى إيفانوفنا ؟ أتعجبينه أم لا ؟

فاضطربت مارى إيفانوفنا واحمر وجهها وقالت :

— يبدو لى أنى أعجبه

— ولماذا تظنين ذلك ؟

مكتبتنا

— لأنه عرض على الزواج

— عرض عليك الزواج ؟ ومتى كان ذلك ؟

— فى العام الماضى . قبل حضورك بشهرين

— وهل رفضت ؟

— إن شفابرين كما تعلم رجل ذكى ولا شك ومن أسرة طيبة . وثرى .


maktbtna.com

« وفجأة سمعت أحداً يهتف باسمى فالتفت بسرعة ولمحت سافيليتش يجرى نحوى »

ومع هذا لم أتصور نفسي أعانقه أو أقبله . هذا مستحيل
ففتحت كلمات ماري إيفانوفنا عيني وفسرت لي أشياء كثيرة . ولا سيما تحامله عليها . ولعله لاحظ تقارباً بيننا فاجتهد أن يباعد بيني وبينها . وبدت لي الكلمة التي أردنا المبارزة بسببها أكثر من مزاح سخيف . بدت لي تشنيعاً مقصوداً دنيئاً وفرية سافلة . وازدادت رغبتي في معاقبة هذا الكذاب الوقح . ورحت أنتظر اللحظة المناسبة بصبر نافد



ولم يطل انتظاري . ففي اليوم التالي وأنا جالس أعض على قلمي بحثاً عن قافية مستعصية في قصيدة أنظمها . إذا شفابرين يطرق نافذتي . فوضعت قلمي وتناولت سيفي وخرجت من البيت . فقال لي :

— لماذا ننتظر أكثر من ذلك ؟ إنهم كفوا الآن عن مراقبتنا فهيا الى شاطىء النهر . فهناك لا يوجد أحد يشغلنا أو يحول بيننا

وذهبنا صامتين . فبعد أن هبطنا في طريق ملتو وقفنا على حافة الماء ثم التحم سيفانا

maktbtna.com

وكان شفابرين أمهر مني في السيف . ولكني كنت أقوى منه بنية وأشد عزماً . وكان بوبريه قد علمني دروساً في السيف أفادتني كثيراً لأنه كان فيما سبق من مراحل حياته جندياً مرتزقاً

ولم يكن شفابرين يتوقع أن يجد في شخصي خصماً خطراً . وظللنا برهة طويلة لا ينال أحد منالا من صاحبه . وأخيراً لاحظت أن شفابرين بدأت قواه يعتريها الوهن . فهجمت عليه بعنف . وأوشك تحت ضغط الهجوم أن يسقط في النهر وهو يتقهقر

مكتبتنا

وفجأة سمعت أحداً يهتف باسمي بصوت مرتفع . فالتفت بسرعة من غير تفكير . ولمحت سافيلتش يجري نحوي

وفي هذه اللحظة شعرت بوخزة شديدة في صدري تحت كتفي الأيمن وسقطت فاقد الوعي على الأرض

الفصل العاشر

عدت الى الحياة

قال بطل الرواية بطرس اندريتش .

ولما ثبت الى نفسى لبثت مدة طويلة لا أدرك ما الذى حدث لى ، ولا أين أنا . وكنت راقداً فوق سرير فى حجرة مجهولة . وأحسست بوهن شديد . وكان سافيلتش واقفاً أمامى وفى يده مصباح . وهناك شخص يرفع فى حذر الضمادات التى كانت تحيط بكتفى وصدرى . وتذكرت شيئاً فشيئاً ما حدث قبل إصابتى . تذكرت المبارزة وأدركت بغير صعوبة أننى كنت جريحاً . وفى تلك اللحظة سمعت صرير الباب ، ثم صوتاً هامساً جعلنى أنتفض :

maktbtna.com

— كيف حاله الآن ؟

فأجاب سافيليتش وهو يتنهد :

— كما هو . فاقد الرشد . مع مرور أربعة أيام على الإصابة

وأردت أن أتحرك ولكنى لم أجد فى نفسى المقدرة . فقلت بجهد :

— أين أنا ؟ من هنا ؟

فاقتربت مارى ايفانوفنا من فراشى وانحنت برفق فوقى وسألتنى :

— كيف حالك الآن ؟

— بخير ولله الحمد . أهذه أنت يا مارى ايفانوفنا ؟ خبرينى . . .

ولم أستطع أن أتم سؤالى . لأن سافيليتش أطلق صيحة فرح عظيمة :

— لقد ثاب الى رشده .. الى رشده . . لك الحمد اللهم ! . لماذا أفزعتنى هكذا يا أبى الصغير ؟ أربعة أيام ؟ . اللفظ سهل ! . . .

فقاطعته مارى ايفانوفنا قائلة :

— لا تكلمه كثيراً يا سافيليتش . إنه لم يزل ضعيفاً

وخرجت وأغلقت الباب بكل حذر . وشعرت بأفكار مضطربة تجيش في رأسي . أنا إذن في بيت القائد ما دامت ماري ايفانوفنا تستطيع أن تدخل الى حجرتي ! . وأردت أن أسأل سافيليتش غير أن العجوز هز رأسه وسد أذنيه . فأغمضت عيني باستياء وسرعان ما نمت



ولما استيقظت ناديت سافيليتش . ولكن بدلا من خادمي العجوز رأيت ماري ايفانوفنا تحيتني بصوتها الرقيق . ولا أستطيع أن أصف الشعور الرقيق الذي خامرني في تلك اللحظة . فتناولت يدها وضغطت عليها بهيام وأنا أرويها بمدامعي . ولم تجذب ماري يدها . . . بل فجأة أحسست على وجنتي بملمس ثغرها الرطب المتقد . وكنار جارفة سرى تيارها في كياني كله . فقلت لها :

— يا عزيزتي النبيلة ماري ايفانوفنا . كوني زوجتي . أتمي سعادتي

فاستردت رشدها وقالت لي وهي تجذب يدها من يدي :

— بحق السماء إهدأ . إنك لم تزل في مرحلة الخطر . وجرحك معرض أن ينتكيء . فكن على حذر . . . وصن نفسك ولو من أجلي أنا . . .

maktbtna.com

وعلى أثر هذه الكلمات انصرفت وتركتني في ذروة السعادة . ومنذ تلك اللحظة وأنا أشعر أني عدت الى الحياة

واطرد التحسن في حالتي من ساعة الى ساعة . وكان حلاق الفرقة هو الذي يضمد جراحي لأن القلعة لم يكن بها طبيب سواه . وبحمد الله جاءت العاقبة سليمة . وساعد شبابي كما ساعدت الطبيعة على الاسراع بشفائي . وكانت أسرة القائد تحوطني بأقصى العناية من جميع أفرادها

وغني عن القول أني انتهزت أول فرصة مناسبة لاستئناف الاعراب عن عواطفي من حيث انقطع . وفي هذه المرة أعارتني ماري سمعها في مزيد من الصبر . واعترفت لي بحبها في سذاجة . وأضافت أن والديها سيسرهما كثيراً أن تتم سعادتها . ولكنها سألتني في حصافة :

— ولكن هل تظن أنه سوف لا تكون هناك عقبات من جهة والديك؟

ودفعتني هذه العبارة الى التفكير . وما كان عندي أدنى شك في حنان

والدتى ورفقها بى . بيد أن ما أعرفه عن طبع أبى ومنحاه فى التفكير ، جعلنى أتوجس من قراره . فلا أحسبه يقيم وزناً لعواطفى . وسيحملها ولا شك على محمل طيش الشباب الذى يجب أن يكسر جماحه

وصارحت مارى ايفانوفنا بما يدور فى رأسى . وفى الوقت نفسه قررت أن أكتب الى أبى بأقصى ما أستطيعه من البلاغة كى أطلب منه موافقته وبركته لهذه الخطبة . وعكفت فعلا على الكتابة

وعندما فرغت من تدبيج رسالتى تلوتها على مارى ايفانوفنا فوجدتها غاية فى قوة الحجة ومتانة الاقناع والتأثير على العواطف . ولم تشك فى نجاحها فى الحصول لنا على مرامنا . ثم أعقب ذلك الاطمئنان الى عواطفى



وكان توفيقى فى الحب كفيلا بعقد الصلح بينى وبين الدنيا ومن فيها . فلا متسع فى قلبى لغل على أحد . وهكذا تصافيت مع خصمى شفابرين فى الأيام الأولى من نقاهتى . وأما ايفان كوزميتش فقال يؤنبنى :

ــ الحقيقة يا بطرس اندريتش أنى كنت مطالباً بالقاء القبض عليك على حسب الأصول المنصوص عليها فى قانون الجيش . ولكن يكفيك ما عوقبت به بثمرات طيشك نفسه . أما شفابرين فهو محبوس بأمر منى ، تحت حراسة قوية فى مخزن القمح . وسيفه مقفل عليه بالمفتاح فى دولاب فاسيليسا يوجوروفنا . وأمامه وقت طويل يراجع فيه نفسه على مهل ويندم على فعلته

ولم يتفق هذا الانتقام والتشفى مع ما أشعر به فى قلبى من غبطة . فأخذت أتضرع الى القائد الطيب من أجل شفابرين . إلى أن لان قلبه ووافق بعد إذن زوجته على إطلاق سراحه

وحضر شفابرين لزيارتى . وأظهر أسفاً عميقاً لكل ما حدث . وأقر أن الخطأ كله واقع عليه . ثم توسل الىّ أن أنسى الماضى

ولما كنت بطبعى عزوفاً عن الأحقاد ، فقد غفرت له عن طيب خاطر ما كان بيننا من خلاف . كما غفرت له ما أصابنى به من الجرح . واعتبرت قوله بالسوء على مارى ايفانوفنا ضرباً من الثورة للغرور المجروح . ولهذا كله لم أتردد كثيراً فى الصفح الكريم عن هذا الغريم المهزوم

وسرعان ما تم شفائي وصار في استطاعتي أن أعود الى مسكني . وهناك لبثت أنتظر بصبر نافد خطاب أبي رداً على خطابي . وأخذت عوامل التفاؤل تخف في نفسي رويداً رويداً . حتى أصبح جهدي غير موجه الى إذكاء الأمل ، بل الى محاربة سحائب اليأس والتوجس

ولم أكن قد تفاهمت بعد مع عميدة الأسرة وولية الأمر فاسيليسا يوجوروفنا ولا مع زوجها . ولكن طلبي سوف لا يقع منهما موقع الدهشة في أوانه . لأنني وماري لم نكن نخفي عواطفنا تماماً أمامهما . وكنا واثقين سلفاً من رضاهما

وأخيراً . . . ذات يوم صحو جميل ، دخل سافيليتش حجرتي وفي يده خطاب . فاختطفته من يده وأنا أنتفض . وكان العنوان مكتوباً بخط أبي . فجعلني هذا الخط أتوجس شراً مستطيراً . لأن العادة جرت أن تقوم أمي بالكتابة من الداخل والخارج . ولا يفعل أبي أكثر من إضافة سطور قليلة في النهاية

ولبثت برهة طويلة لا أجسر على فض الخطاب الرهيب . وأنا أعيد تلاوة صيغة العنوان الرسمية جداً :

maktbtna.com

— الى ولدي بطرس اندريتش جرينيف . مقاطعة أورنبورج . قلعة بيلوجورسك

وحاولت أن أستطلع من خطه حالة مزاج كاتبه وهو يسطر الخطاب . فلم أصل الى طائل . وأخيراً قررت فض الخطاب ومواجهة الحقيقة مهما كانت



الفصل الحادى عشر

آلام وأحزان

كانت السطور الأولى فى حد ذاتها كافية كى أوقن ان القضية كلها خاسرة . وهذا هو نص ذلك الخطاب المشئوم :

« ولدنا بطرس

« تلقينا فى يوم ١٥ الجارى الخطاب الذى تطلب فيه منا بركتنا الأبوية وموافقتنا على زواجك من المدعوة مارى ايفانوفنا . بنت المدعو ميرونوف

« وليس فى نيتنا أن نمنحك البركة ولا الموافقة . ليس هذا فقط . بل أيضاً فى نيتى أن أصل الى حيث تقيم . وأن أؤدبك على بلاهتك كما ينبغى تأديب صغار الغلمان ، بغير اعتبار لرتبة الضابط التى تقلدتها . ذلك انك أثبت انك لست جديراً بحمل السيف الذى سلم اليك لتدافع به عن الوطن لا لتتبارز به مع المجانين من أمثالك وطينتك !

« وسأكتب على الفور خطاباً الى صديقى القديم الجنرال اندرى كارلوفتش لأطلب منه الأمر بنقلك الى موضع آخر غير قلعة بيلوجورسك ، يكون أبعد وأشد قفراً وعزلة ، كى تتخلص من جنونك هذا

« وبوصول أنباء مبارزتك وجرحك سقطت أمك مريضة من الحزن والألم . وما زالت حتى الآن طريحة الفراش

«ماذا ينتظر منك بعد ذلك ؟ انى أسأل الله أن يصلحك . مع أنى لا أجد الجرأة على التفاؤل فى إصلاح عقلك وسلوكك فى المستقبل

أبوك

ا. ج.

maktbtna.com

وكانت تلاوة هـذا الخطاب سبباً فى إيقاظ مشاعر متباينة فى جوانحى . فالعبارات القـاسية التى لم يرحمنى منها أبى أصابتنى بجرح عميق . والازدراء الذى أظهره نحو مارى ايفانوفنا بدا لى غير لائق ، وجائراً غاية الجور . ثم أن فـكرة إبعادى عن قلعة بيلوجورسك كانت كافية لفزعى الشديد . وفضلا عن هذا كنت متألماً على الخصوص لمرض أمى

وهذا كله عمل على إثارة غضبى على سافيليتش . إذ لم يساورنى الشك انه هو الذى رفع الى علم أبى وأمى نبأ مبارزتى وجرحى

وجعلت أتمشى فى حجرتى الصغيرة طولا وعرضاً وأنا صامت أكاد أتفجر من الغيظ . ثم وقفت أمامه فجأة وقلت بغضب شديد :

— يظهر انه لم يكفك أننى جرحت بسبب سوء تصرفك وأوشكت أن أموت . فأردت أيضاً أن تقتل أمى

فوقف سافيليتش جامداً كأن صاعقة أصابته ثم صاح بصوت باك :

— رحماك يامولاى ! ما هذا الذى تقوله لى ؟ أأنا السبب فى انك جرحت؟ الله شهيد أننى كنت أجرى كى أضع صدرى درعاً أمام صدرك لأتلقى فيه سيف شفابرين . ولم يمنعنى من هـذا إلا الشيخوخة اللعينة . ووالدتك الموقرة ماذا ترانى أيضاً فعلت لها ؟

— مافعلته لها ؟ ومن الذى كلفك أن تكتب واشياً ضدى عند أبى ؟ هل جعلوك فى خدمتى كى تكون جاسوساً علىّ ؟

فانفجر باكياً بدمع منهمر وقال :

— أنا أكتب وشايات ضدك ؟! رحماك يا إلهى يامالك الملوك .. خذ إذن واقرأ ما تفضل سيدى بكتابته إلىّ لترى بنفسك هل وشيت بك أم لا

وأخرج من جيبه خطاباً بسطه نحوى فقرأت فيه ما يلى :

« أخزاك الله أيها الـكلب العجوز لأنك لم تكتب إلىّ شيئاً عن أحوال ولدى بطرس اندريتش . متجاهلا أوامرى المشددة بذلك ، حتى اضطر الغرباء أن يقوموا بتعريفى بأخبار حماقاته وخباله . !

« أهكذا تؤدى واجبك وتنفذ أوامر أسيادك ؟ سأبعث بك لرعى الخنازير أيها الـكلب العجوز لأنك أخفيت الحقيقة ، وتواطأت لاخفاء عيوب هذا الشاب . فمتى وصالك خطابى آمرك أن تخبرنى فوراً بحالته الصحية التى قيل لى

انها آخذة فى التحسن . وتعين لى بوجه التحديد موضع إصابته . وهل تم شفاؤه على الوجه المرغوب أم لا »

وواضح من هذا الخطاب ان سافيليتش ليس عليه أدنى ذنب . بل أنا الذى أسأت اليه بظنونى وملامى . فسألته الصفح . بيد ان العجوز المسكين لم يشأ أن يتعزى عن الاهانات التى ألحقتها به . وراح يكرر القول :

— هذا هو الذى عشنا الى أرذل العمر لنبتلى به !. هذه هى المكافأة التى استحققتها من أسيادى بعد طول خدمتى ! أنا كلب عجوز وراعى خنازير ! وكل هذا يحتمل إلا أننى كنت السبب فى جرحك .. كلا يا والدى الصغير بطرس اندريتش ! لست أنا المذنب ! وإنما هو ذلك المسيو الملعون . هو الذى علمك اللعب بهذه السكاكين الملعونة . وتطويحها فى الهواء وأنت تضرب الأرض بقدمك ! وهل كان هناك ضرورة لتبذير الأموال لاستئجار هذا الملعون ؟



والواقع انى شغلت بسرعة عن نواح سافيليتش بالتفكير فى من عساه يكون ذلك الشخص الذى جشم نفسه مؤنة الوشاية بسلوكى عند أبى ؟

أهو الجنرال ؟ انه لا يبدو مشغولا جداً بشأنى . وكذلك ايفان كوزميتش لم يجد من الضرورى أن يرفع اليه تقريراً عن مبارزتى

وغرقت فى التكهنات . ثم انتهت بى ظنونى الى شفابرين . فهو وحده الذى له مصلحة فى تلك الوشاية . إذ قد يترتب عليها كما حدث أن يعمل والدى على إبعادى عن القلعة للتفريق بينى وبين أسرة القائد

وذهبت على الفور كى أروى كل شىء لمارى ايفانوفنا . وخفت مارى للقائى فى الشرفة الأمامية وبادرتنى قائلة :

— ماذا حدث لك ؟ كم أنت شاحب الوجه !

فمددت نحوها خطاب أبى وأنا أقول :

— انتهى كل شىء !

فشحب وجهها . وبعد أن فرغت من قراءة الخطاب ردته إلىّ وقالت بصوت أجش :

maktbtna.com
مكتبتنا

— مسألة قسمة ونصيب . فوالداك لارغبة لهما فى أن أكون زوجة لك. لا يريدانى فى أسرتهما . فلتكن مشيئة الرب ! إن الله أعلم منا بما يصلح لنا . وليس بيدنا شىء يا بطرس أندريتش . فلتسعد أنت ، أنت على الأقل

— فصحت بها وأنا أقبض على يدها !

— هـذا لن يكون . أنت تحبيننى . وأنا مستعد لـكل شىء . مستعد لمواجهة جميع الأمور . فهيا ننطرح تحت أقدام والديك . فهما من أهل النفوس الصافية ليس فيهما كبر أو قسوة . وسوف لا يبخلان علينا ببركتهما . ولنتزوج فوراً . وأنا واثق اننا بمرور الزمن سننجح فى إلانة قلب أبى . وستتوسط لنا أمى عنده . فأنا أعرف قلبها وموقن انها ستصفح عنى

فأجابت مارى قائلة :

— كلا يابطرس أندريتش . لن أتزوجك بغير بركة أبويك . فبغير بركتهما لن تكون سعيداً بمعنى الـكلمة . فلنخضع لارادة الله . وإذا التقيت بخطيبة أخرى . وأحببتها . فليبارك لك الله فيهـا . وكان الله معك . وسأدعو الله يابطرس أندريتش لـكما

وانهمرت دموعها وانسحبت من الغرفة . وكان فى نيتى أن أتبعها الى حجرتها . لولا انى شعرت بنفسى عاجزاً عن تمالك جأشى فعدت الى البيت

وكنت جالساً غارقاً فى أحزانى عند ما دخل سافيليتش فجأة وقطع علىّ حبل خواطرى . وقدم إلىّ ورقة مسودة بخطه قائلا :

— هاك ياسيدى . أنظر لتعرف هل أنا جاسوس مولاى وهل أنا أعمل على إفساد ما بين الابن وأبيه

وتناولت الورقة من يده . فاذا بها رد سافيليتش على الخطاب الذى تلقاه من أبى . وهذا ما كتبه فيه :

« مولاى أندرى بتروفتش ، والدنا المعظم

« تلقيت كتابكم السامى الذى أظهرتم فيه تنازلـكم بالغضب علىّ أنا عبدكم. واعتباركم انى أهملت فى واجباتى المقدسة نحو أسيادى

« وإنى لست كلباً عجوزاً بل خادمكم المخلص الذى يطيع أوامر أسياده . وطالما خدمتكم بكل صدق ومهارة الى أن ابيض شعرى

« لم أكتب اليكم شيئاً عن الجرح الذى أصيب به بطرس أندريتش حتى

maktbtna.com

مكتبتنا

لا أحدث انزعاجاً بغير مبرر . وها نحن سمعنا ان مولاتنا وأمنا الجليلة افدوتيا فاسيليفنا مرضت حزناً وجزعاً لهذا النبأ . وانى أتوجه الى الله بالدعاء الحار كى يرد لها عافيتها

« والجرح الذى أصيب به بطرس أندريتش فى الصدر . تحت الكتف الأيمن . وبعمق خمسة قراريط . وكان تمريضه فى بيت القائد حيث حملناه من مكان المبارزة على شاطىء النهر . وقام حلاق الحامية بعلاجه . وبطرس أندريتش يتمتع الآن بحمد الله بصحة طيبة . وليس عندى ما أقوله عنه إلا كل خير . فرؤساؤه فيما يقال راضون عنه . وفاسيليسا يوجوروفنا تعامله كما لو كان ابنها. وليس مما يعاب عليه ماحدث له . فان الحصان له أربعة قوائم لا اثنتان . ومع هذا يكبو ..

« وأما قولكم انكم سترسلونى لرعى الخنازير . فأنت المولى والأمر أمرك. ولا يسعنى الآن سوى أن أحييكم فتلمس هامتى الأرض

عبدكم الخاضع



maktbtna.com

فلم أستطع بعد تلاوة تلك السطور أن أغالب الابتسام . ولم أجد فى نفسى القدرة على الكتابة فوراً الى أبى . وتراءى لى ان خطاب سافيليتش سيكون كافياً لتطمين والدتى

ومن ذلك اليوم تغير الموقف . إذ اجتهدت مارى ايفانوفنا فى تجنبى وتجنب مخاطبتى . وأصبح بيت القائد لا يطاق فأخذت أعود نفسى شيئاً فشيئاً البقاء فى مسكنى . وأبدت فاسيليسا يوجوروفنا فى البداية استياءها . ثم لم تلبث أن يئست فتركتنى وشأنى . وصرت لا أرى ايفان كوزميتش إلا لضرورة العمل

ولم أجتمع بشفابرين إلا فى مناسبات نادرة . لما أيقنت به من سوء طويته وعدائه لى . بل ثقلت الحياة كلها على نفسى واستسلمت للكآبة التى تزيد دائماً بالعزلة والخمول . وفقدت كل رغبة فى القراءة والأدب . حتى خشيت أن أنقلب مجنوناً من كثرة انطوائى وركودى

وكان هذا حرياً أن يحدث فعلا لولا ان الحوادث غيرت مجرى الأمور فجأة وكان لها تأثير حاسم فى إخراجى من انطوائى . وتحويل تيار حياتى كله

الفصل الثانى عشر

الثائر پوجاتشيف

وقبل أن أشرع فى سرد الحوادث الغريبة التى شهدتها بنفسى أجـد من الضرورى أن أذكر بضع كلمات عن الموقف الذى كانت فيه مقاطعة أورنبورج قرب نهاية سنة ١٧٧٣

كانت هذه المنطقة الغنية المترامية الأطراف مأهولة بمجموعة من العشائر أنصاف المتوحشين ، لم تعترف بسيطرة القياصرة الروس إلا منذ وقت قريب جداً والحقيقة أن تمردهم المستمر . وضيقهم بجميع القوانين وبالحياة المتحضرة . وعدم ثباتهم عند رأى وقسوتهم . كل ذلك كان يتطلب من جانب الحكومة رقابة مستمرة كى تردهم على الدوام الى الطاعة

maktbtna.com

وكانت قد أقيمت بضع قلاع فى الأماكن الاستراتيجية المناسبة . وفى معظم هذه القلاع أقيمت مساكن ثابتة للقوقازيين ، وهم المالكون القدماء لشواطىء نهر يابيك الذى يخترق الاقليم

والمفروض أن هؤلاء القوقازيين أنفسهم ينبغى أن يكونوا هم العاملين على إقرار السلام والمحافظة على الأمن فى تلك المناطق. إلا أن الغريب فى أمرهم أنهم أصبحوا منذ فترة من الزمن عناصر قلق وشغب ومصدر خطر للحكومة المركزية القيصرية

وفى سنة ١٧٧٢ قامت فى مركزهم الرئيسى حركة تمرد . وسبب هـذا التمرد هو الاجراءات العنيفة التى اتخذها الجنرال تراوبنبرج كى يعيد الجيش فى تلك المنطقة الى الطاعة . ولم يفلح الجنرال إلا فى أن يخسر حياته قتيلا بيدهم بصورة وحشية . ثم قام زعماء جدد ولم تفلح الحكومة فى إخماد الحركة إلا

بقوة المدافع وباستعمال التعذيب وأنواع التنكيل والتمثيل الوحشية

كل هذا حدث قبل وصولى للاقامة فى قلعة بيلوجورسك بوقت قصير . فلما وصلت كان كل شيء يبدو هادئاً . أو هذا ما ظنته الحكومة التى أحسنت الظن بسهولة فى صدق توبة المتمردين

والحقيقة أن هؤلاء الهمج الأحلاف كانوا منطوين على أحقادهم فى صمت ويتربصون فى الوقت نفسه أول فرصة مناسبة لاستئناف الكفاح . والى هنا أكون قد وصلت الى حيث انقطعت روايتى



وذات مساء . وكان ذلك بالضبط فى مستهل شهر أكتوبر سنة ١٧٧٣ . كنت وحدى فى البيت أجتر كآبتى مصغياً الى صفير رياح الخريف . ومحملقاً فى السحب التى كانت تنساب خفيفة سريعة أمام قرص القمر . وإذا برسول من قبل القائد يدعونى إليه

وخففت إلى بيت القائد على الفور . فوجدت هناك شفابرين . وإيفان انياتتش وصول القوزاق . ولم أجد فى الحجرة أثراً لزوجة القائد ولا لابنته فأدهشنى ذلك كثيراً

maktbtna.com

وابتدرنى القائد بالسلام وهو يبدو مشغول البال . وأسرع يقفل الباب ثم جلسنا جميعاً فيما عدا الصول القوقازى الذى ظل واقفاً . وأخرج من جيبه صحيفة وقال لنا القائد

— حضرات الضباط . نبأ هام ! اسمعوا ماذا كتب الجنرال

ووضع منظاره على أنفه وقرأ ما يلى :

« إلى السيد قائد قلعة بيلوجورسك . الكابتن ميرونوف (سرى)

« أحيطك بهذا الخطاب علماً أن الجندى القوزاقى الهارب من الخدمة الزنديق المدعو يمليان بوجاتشيف ، قد ارتكب عيباً خطيراً فى الذات القيصرية لا يغتفر بانتحاله اسم المرحوم الطيب الذكر أمبراطورنا السابق القيصر بطرس الثالث . ثم جمع فرقة من قطاع الطرق وأثار القلاقل والفتن فى قرى يابيك ومزارعها . واستولى وضرب بضع قلاع فى تلك المنطقة ، مقترفاً فى كل مكان يحل به أعمال السلب والنهب والقتال

مكتبتنا

« وعلى هذا يجب عليك أيها السيد الكابتن بمجرد وصول هذا الأمر إليكم أن تقوم باتخاذ الاجراءات والخطط اللازمة لدفع عدوان ذلك المغتصب عدو الله والعرش . وإن أمكن تقومون باستئصال شأفته نهائياً إذا حدثته نفسه بتوجيه قواته ضد القلعة المعهود بها إليكم »



وبعد أن فرغ القائد من القراءة خلع منظاره وطوى الخطاب قائلا :

— اتخاذ الاجراءات اللازمة ! كلام سهل . والملعون يبدو قوى البأس. وليس عندنا إلا مائة وثلاثون رجلا ، بما فيهم جنود القوزاق الذين لا يمكن التعويل عليهم كثيراً . ولا مؤاخذة فى هذا الكلام الصريح الذى لا يمسك أنت يا مكسيمتش

فابتسم الصول . واستطرد القائد :

— ومع هذا يجب يا حضرات الضباط أن نقوم بواجبنا على أتم وجه . كونوا حذرين ومتيقظين . وضعوا حراساً وديدبانات فى المواقع المهمة . وقوموا بجولات ودوريات ليلية . وفى حالة الهجوم علينا اقفلوا الأبواب واخرجوا الجنود لصد الهجوم

maktbtna.com

والتفت نحو الصول وقال له :

— وأنت يا مكسيمتش . أرقب بعين ساهرة جميع حركات جنودك القوزاق وسكناتهم . ويجب أيضاً أن تقوم بفحص المدفع وتنظيفه جيداً لأنه لم يستعمل منذ زمن طويل ويجب على الخصوص أن نكتم السر تمام الكتمان فينبغى ألا يعرف أى إنسان فى القلعة شيئاً عن هذا النبأ قبل الوقت المناسب

وبعد أن أتم القائد توزيع الأوامر والتعليمات ، صرفنا إيفان كوزميتش فخرجت مع شفابرين ونحن نتحدث معلقين على ما سمعناه . ورأيته ساكتاً فسألته :

مكتبتنا

— ما رأيك أنت ؟ كيف ترى الأمور ستجرى ؟

فهز كتفيه وقال بتحفظ :

— الله أعلم . كل آت قريب . ولكنى لغاية الآن لا أرى بوادر خطر . ومع هذا إذا حدث . . .

ولم يتم جملته بل راح يصفر بفمه وهو شارد لحناً فرنسياً . . .



وبالرغم من جميع الاحتياطات التي اتخذناها . شاع في القلعة كلها طولا وعرضاً نبأ ظهور الثائر بوجاتشيف . وعجبنا كيف تسرب الخبر . فمهما كان سلطان فاسيليسا يوجوروفنا على القائد . ومهما كان احترام القائد لزوجته . فما كان إيفان كوزميتش ليفضي إليها بأي ثمن سراً أؤتمن عليه من الأسرار العسكرية

وعلمنا أنه بمجرد وصول رسالة الجنرال إليه كان من اللباقة بحيث تخلص من فاسيليسا يوجوروفنا بأن قال لها إن الأب جراسيم تسلم من أورنبورج أخباراً غير عادية لا يريد أن يطلع عليها أحد

وكان هذا كافياً لاثارة فضول فاسيليسا يوجوروفنا في الحال . فاستبدت بها الرغبة لزيارة زوجة القسيس فوراً . ولما قالت لايفان كوزميتش أنها ذاهبة نصحها أن تأخذ معها ابنتها ماري لأن الزيارة ستطول بسبب مراوغة القسيس في الافضاء بسره . وستضجر الفتاة في البيت وحدها

وبعد أن خلا المجال لايفان كوزميتش أرسل يستدعينا في التو واللحظة ولم يفته أن يحبس بلاشكا في المطبخ حتى لا تتسمع الحديث . وبذلك تمت للقائد أسباب الطمأنينة على السر العسكري .

وعادت فاسيليسا يوجوروفنا بعد زيارة طويلة الى البيت من غير أن تفلح في استخراج شيء من زوجة القسيس . عادت مستاءة . لتعلم أن زوجها الفاضل عقد أثناء غيابها مجلساً حربياً في حجرته . وإن بلاشكا كانت محبوسة في المطبخ والمفتاح في جيب إيفان كوزميتش

وفي الحال أدركت فاسيليسا يوجوروفنا أن زوجها ضحك عليها وخدعها . فصوبت كل مدافعها عليه تمطره بالأسئلة بلا رحمة . بيد أن إيفان كوزميتش كان يتوقع ذلك الهجوم . فلم يرتبك أو يتلعثم وأجاب نصفه الفضولي قائلا :

— اسمعي يا أمي الصغيرة . المسألة وما فيها بصراحة أن نساء هذا الاقليم نبتت في رأسهن فكرة شيطانية

— ماذا تقصد يا إيفان كوزميتش ؟

— يردن عليهن اللعنة أن يوقدن نيراناً للتدفئة بالقش . وهذا طبعاً يمكن أن ينجم عنه ضرر وخطر . فرأيت من واجبي أن أجمع ضباطي وأصدر إليهم الأمر بالتيقظ لهذه المسألة حتى لا توقد النساء النار بالقش فليس مصرحاً بإيقاد نار إلا بالحطب أو الخشب أو البوص

فرمقته زوجته بنظرة شذراء وقالت :

— وما وجه الحاجة الى حبس بلاشكا إن كان هذا هو الموضوع ؟ لماذا بقيت المسكينة فى المطبخ لحين عودتى أنا وماري ؟

ولم يكن المسكين إيفان كوزميتش قد استعد من قبل لسؤال كهذا . فغمغم بضع كلمات متداعية لامعنى لها . وفطنت فاسيليسا يجوروفنا الى مكر زوجها واحتياله . وفى الوقت نفسه أدركت أنها لم تظفر منه بطائل وهو متخذحذره . فكفت عن أسئلتها وتكلمت عن مخلل الخيار اللذيذ الذى تتقن اكولينازوجة القسيس تجهيزه بطريقة ممتازة

ولم يغمض لفاسيليسا يجوروفنا جفن طول الليل وهى تتقلب وتتكهن بما عساه يكون فى رأس زوجها مكتوماً عنها

maktbtna.com

ولما طلع النهار ذهبت الى القداس الباكر فى الكنيسة وعند عودتها لمحت ايفان انياتتش مشغولا باستخراج أشياء غريبة من داخل المدفع الوحيد بالقلعة . قطعاً من الخشب والحجارة والعظام وأنواعاً شتى من القاذورات كان الغلمان حشوا بها المدفع المهمل . فقالت زوجة القائد فى نفسها لما رأت ذلك النشاط غير العادى

— ماذا يمكن أن يكون . ومامعنى هذه الاستعدادات الحربية ؟ هل يخشون هجوماً من جانب القرغيز ؟ وهل يمكن أن يكون إيفان كوزميتش كتم عنى شيئاً خطيراً فاجعاً كهذا ؟

ونادت ايفان انياتتش بحزم من صممت أن تعرف كل شىء منه ، حتى تشبع فضولها الأنثوى وتستريح

وبدأت فاسيليسا يجوروفنا المناورة بأن حدثته وأبدت له ملاحظات على بضع أمور تتعلق بشؤون البيت من الطعام والنظافة وما إلى ذلك . كما يبدأ

المحقق بتوجيه أسئلة غريبة عن القضية كي يخدر أعصاب المتهم وينوم ريبته وحذره .

ولما فرغت من هذا التمهيد ساد الصمت لحظة . ثم تنهدت فى زفرة عميقة وقالت وهى تهز رأسها بأسى :

— رحمتك يا رب ! أسمعت النبأ المشئوم ؟ ترى ماذا سنفعل ؟

فأجابها إيفان انياتتش بسذاجة :

— هونى عليك يا أمى الصغيرة فان رحمة الله واسعةوقدرتههائلة . والحمد لله إن لدينا ما يكفى من العساكر ، والكثير من البارود . وها أنا قد نظفت المدفع . ومن يدرى ؟ ربما نهزم بوجاتشيف . وإذا لم يخذلنا الرب ، فلن يأكل الذئب أحداً فى هذا الموضع المبارك

فسألته زوجة القائد وقد قطبت حاجبيها :

— ومن هو بوجاتشيف هذا ؟

فبهت إيفان انياتتش . وأدرك على الفور أنه كان غراً استغفلته زوجة رئيسه وجعلته يتفوه بأكثر مما ينبغى . فعض على لسانه . ولكن الوقت قد فات ولم تعد هناك قوة على وجه الأرض تستطيع أن توقف فاسيليسا يوجوروفنا عن الوصول إلى السر

وفعلا لم تكف زوجة القائد عن إيفان انياتتش إلا بعد أن ذكر لها السر بجميع حذافيره وتفاصيله . ولكن بعد أن وعدته وعد الشرف ألا تقول شيئاً مما باح لها به لأحد من الناس

ولم تحنث فاسيليسا يوجوروفنا بوعدها . ولم تخبر أحداً من الناس إذا اعتبرنا زوجة القسيس وهى أكبر ثرثارة فى الاقليم ليست من الناس ! وقامت هذه بنشر الخبر

وإنصافاً لفاسيليسا يوجوروفنا نقول أنها أخبرت زوجة القسيس لاعتبار واحد فقط . فلهذه المسكينة الطيبة بقرة واحدة تخرج للمرعى فى السهوب . وخشيت زوجة القائد أن يأخذها الثوار !

maktbtna.com

الفصل الثالث عشر

المجلس الحربى

سرعان ما أصبح اسم بوجاتشيف ، بفضل إخلاص فاسيليسا لصديقتها زوجة القسيس ، على كل لسان . وكثرت الأخبار والتكهنات والاشاعات وتضاربت فى شأنه . فرأى القائد أن يرسل صول القوزاق لأنه قوقازى من جنس أهل المنطقة كى يتسقط له كل ما يمكن من الأخبار فى القرى المجاورة

وغاب الصول مدة يومين . عاد بعدها ليخبرنا أنه أبصر بعينيه فى السهوب على مسافة ستين فرسخاً من القلعة كمية كبيرة من النيران الموقدة فى جوف الليل . وأنه سمع من الباشكير أن قوة لا يحصى لها عدد تزحف نحونا . ولم يستطع أن يدلى بأكثر من ذلك على وجه التحديد . واعتذر بأنه خشى أن يقترب من الجيش الزاحف أكثر مما فعل حتى لا يقع أسيراً

ثم بدأنا نشعر باضطراب وحركات غير عادية بين القوزاق من جنود الحامية . فكانوا يتجمعون فى كل الشوارع جماعات صغيرة . ويتحدثون فيما بينهم بصوت منخفض ثم لا يلبثون أن يتفرقوا متى شعروا باقتراب أحد منا أو اقتراب أى جندى روسى صميم

ورصدنا عليهم العيون والجواسيس من عشائر أخرى ، ولا سيما فتى اسمه يولاى كان مملوكا واعتنق المسيحية . فرفع الى القائد نبأ غاية فى الخطورة . ومؤداه أن الصول مكسيمتش جاءه بأنباء من رحلته مموهة . فى حين قال هذا الغادر لبنى عشيرته إنه وصل الى معسكر الثوار . ومثل بين يدى قائدهم . وأن هذا الزعيم مد اليه يده كى يقبلها . وهى فى عرفهم مكرمة وتشريف . ثم اختلى به طويلا وتحدثا فى شتى أمور المعركة القادمة

maktbtna.com

ولم يتردد ايفان كوزميتش فى اعتقال الصول . وعين مكانه ذلك الفتى المتنصر يولاى . فنزل ذلك العمل على القوقازيين المسلمين نزول الاستياء . ولم يخفوا شعورهم . وأخذوا يتذمرون بصوت مرتفع . وسمعهم ايفان ايفاتتش وهو ينفذ أوامر القائد . سمعهم بأذنيه يتوعدون القائد قائلين :

— فلينتظر فأر الثكنات وسيرى !

وكان فى نية القائد أن يستجوب السجين فى اليوم نفسه لولا أن الصول تمكن من الهرب . ولا شك أن رفاقه فى الخيانة ساعدوه على ذلك

ووقع شيء آخر زاد من قلق القائد . فقد وقع فى يدنا فرد من البشكير يحمل رسائل سرية . فرأى القائد بهذه المناسبة أن يجمع ضباطه ويتشاور معهم . ومن أجل هذا كان لا بد له من إبعاد زوجته عن البيت بسبب مختلق ولما كان ايفان كوزميتش من أشد الرجال إخلاصاً واستقامة وصراحة . فلم يجد أمامه وسيلة إلا تلك التى استعملها أول مرة . فقال لزوجته وهو يسعل مراراً لجلاء صوته :

— أتدرين يا فاسيليسا يوجوروفنا ؟ يقال إن الأب جراسيم تلقى من المدينة . . .

maktbtna.com

فقاطعته زوجته صائحة :

— إخرس ! إخرس ! أنت لا شك تريد أن تجمع مجلسك الحربى من وراء ظهرى وتكلمهم فى غيابى عن يميليان پوجاتشيف . ولكنك لن تخدعنى هذه المرة

فطرف ايفان كوزميتش بعينيه مراراً وأسقط فى يده فقال :

— ليكن يا أمى الصغيرة ! ما دمت تعلمين كل شيء . فامكثى . ما باليد حيلة . ولنتكلم فى حضورك

مكتبتنا

فأجابته فاسيليسا وهى تهز رأسها :

— إلى متى تحاول أن تسوق المكر على زوجتك ؟ ابعث فى طلب ضباطك



والتأم مجلسنا من جديد . وعندئذ تلا علينا ايفان كوزميتش أمام زوجته

الانذار الذى أرسله يوجاتشيف مع رسوله البشكيرى . وهذا الانذار مكتوب بخط أحد القوقازيين أنصاف المتعلمين

وينذرنا اللص بعزمه على الزحف فوراً على قلعتنا . وهو يدعو جميع القوقازيين والعساكر للانضمام اليه . وينصح القادة بعدم المقاومة . ويتوعدهم إذا قاوموا بأقصى أنواع التعذيب

وكان الانذار مكتوباً بعبارات جافة بيد انها قوية حاسمة . ولا شك انها خليقة أن تترك أثراً عميقاً فى عقول السذج من القوزاق . فصاحت زوجة القائد عند ما فرغ زوجها من التلاوة قائلة :

— ياله من وغد ! أنظروا كيف يجسر على مخاطبتنا بهذه اللهجة النابية ويجترىء على مثل تلك العروض ! يريد منا أن نخرج لملاقاته وأن نضع تحت قدميه أعلامنا المقدسة ! انه حقاً ابن كلب ! ألا يعلم أننا منذ أربعين سنة ونحن فى خدمة الجيش . ورأينا فى تلك المدة الطويلة جميع أنواع المتمردين ؟ وهل من الممكن أن يجد قواداً يبلغ بهم الجبن والانحطاط أن يخضعوا ويدينوا بالطاعة لقاطع الطريق هذا ؟

maktbtna.com

فقال ايفان كوزميتش :

— هذا شىء ما كان ينبغى أن يقع . ولكن يقال ان هذا الزنديق استولى فعلا على بضع قلاع

فقال شفابرين بتؤدة :

— يبدو أنه قوى فعلا

فقال القائد على الفور :

— سنرى فى الحال قوته الحقيقية . أعطنى مفتاح مخزن القمح يافاسيليسا يوجوروفنا . وأنت يا ايفان ايناتتش هات هذا البشكيرى من هناك . وقل ليولاى أن يحضر لنا عصى الخيزران

فقالت القائدة وهى تنهض من مقعدها :

— انتظر قليلا يا ايفان كوزميتش . افسح لى الفرصة كى آخذ ماشا الى خارج البيت . وإلا لسمعت الصيحات . وهذا ولاشك سيخيفها خوفاً فظيعاً .

بل انى لست شخصياً من هواة هذا النوع من الأعمال . طاب وقتكم ..



والواقع ان التعذيب كان يعتبر أصلا متأصلا فى إجراءات العدالة فى بلاد الروسيا فى ذلك الحين . حتى ان المرسوم الذى أصدرته القيصرة كاترين الثانية بالغاء استعمال التعذيب فى التحقيقات ظل ردحاً طويلا من الزمن معطلا لا يجد الناس تنفيذه واجباً أو جائزاً . والسبب فى ذلك هو الاعتقاد الذى كان سائداً بأن اعتراف المتهم كان عنصراً لا غنى عنه لادانته وإصدار الحكم عليه . وهى فكرة جد خاطئة . بل انها فضلا عن ذلك كله منافية ومناقضة للتفكير السليم والبداهة السديدة فى الأعمال القضائية . لأنه إن كان إنكار المتهم للتهمة لا يكفى دليلا على براءته . فاعترافه الذى ينتزع منه بالتعذيب يجب أن يعتبر دليلا أقل حجية على إدانته وللأسف ما زلنا نسمع حتى يومنا هـذا أناساً ولا سيما من الشيوخ والمعمرين يظهرون الأسف والحسرة على إلغاء تلك العادة الموروثة عن الهمجية الأولى

ومهما يكن من شىء ، فلم يكن هناك أحد من الرجعيين أو غيرهم فى زمن هذه الرواية يمارى فى لزوم التعذيب . ويستوى فى هذا الاقتناع القضاة والمتهمون أنفسهم . ولهذا لم يقع أمر القائد من أحد منا موقع الدهشة أو التأثر

وتوجه ايفان ايناتتش ليحضر البشكيرى . الذى كان محبوساً فى مخزن القمح بأمر القائدة . وبعد لحظات قليلة مثل الرجل بين يدينا

وتخطى البشكيرى عتبة باب الحجرة بصعوبة لأنه كان مكبل القدمين بعقال من الخشب . وخلع الرجل قاووقه عن رأسه ووقف قرب الباب . ونظرت أنا الى الرجل ثم ارتعدت رغم أنفى . وإن عشت ماعشت لن أنسى ذلك الرجل . فقد كان عمره على الأقل سبعين سنة . وليس له أنف ولا أذنان . ورأسه حليق بالموسى . ويقوم مقام اللحية منه شعرات بيضاء قليلة متناثرة . وهو قصير القامة نحيف مقوس الظهر . إلا ان عينيه التتريتين كان فيهما بريق نفاذ

وعرف فيه القائد أحد المتمردين الذين نزل بهم العقاب الفظيع سنة ١٧٤١ . وآثار ذلك التنكيل هى التى تحملها أذناه وأنفه . فقال له :

— إيه ! أنت ذئب عتيق فيما أرى . وقعت قبل الآن فى شرا كنا وتركنا

maktbtna.com

فيك ميسمنا . وأرى انك عاودت الثورةغير معتبر بما فات . فاقترب الآن منى وخبرنا بصراحة من الذى أرسلك

فسكت البشكيرى وحملق فى القائد ببلاهة تامة . فصاح ايفان كوزميتش :

— ماذا بك ؟ لماذا سكت ؟ هل أنت عاجز عن فهم اللغة الروسية ؟ يا يولاى . اسأله بلغتكم من الذى أرسله الى قلعتنا

فترجم له يولاى باللغة التتارية سؤال ايفان كوزميتش . ولكن البشكيرى حملق فيه بذلك التعبير الأبله عينه من غير أن يرد فصرخ القائد :

— بحق الشيطان ! لأجعلنه يتكلم ! هيا اخلع عنه قميصه واجلده على كتفيه يا يولاى كما ينبغى

وأسرع اثنان من جنودنا فانتزعا ثيابه من فوق جسده فارتسم القلق والخوف الشديد على وجه المسكين . وراح يقلب عينيه فيما حوله كأنه حيوان صغير وقع فى يد شرذمة من الأطفال القساة

وعند ما قبض أحد الجنديين على يديه ليقيدهما وراء عنقه ثم رفع يولاى السوط لكى يضربه ، إذا بالبشكيرى يطلق أنة ضعيفة عميقة ويرفع رأسه ويفتح فمه ..

maktbtna.com

وهناك . فى مكان اللسان . وجدنا قطعة من اللحم قصيرة مقطوطة . فارتسم الذعر والاستبشاع على وجوهنا جميعاً . وقال القائد :

— أرى أننا لن نستطيع أن نظفر منه بشيء . يا يولاى خذ البشكيرى الى مخزن القمح . أما أنتم يا حضرات الضباط فنستأنف حديثنا معاً



واستأنفنا المناقشة فى الموقف وإذا بفاسيليسا يوجوروفنا تقتحم الحجرة وهى تلهث والذعر مرتسم على وجهها . فسألها القائد متعجباً :

— ماذا أصابك ؟

فأجابت فاسيليسا يوجوروفنا :

— يا للمصيبة ! يا للكارثة !

— أفصحى يا امرأة ..

وكانت هذه أول مرة نسمع فيها قائدنا يجترىء على قائدته !

— إن قلعة نينيوسرن سقطت هذا الصباح

— سقطت ؟ كيف ؟ من الذى قال لك ؟

— غلام الأب جراسيم رجع الآن وشهد بعينيه سقوطها . وكيف شنق بوجاتشيف القائد وجميع الضباط فى الحال . أما جميع الجنود فأخذهم أسرى. واللاعين فى طريقهم الى هنا

وكان لهذا الخبر المفاجىء أثر عميق فى نفسى . فان قائد قلعة نينيوسرن شاب رقيق جميل خجول . وكنت أعرفه شخصياً ، لأنه منذ شهرين مر بقلعتنا قادماً من أورنبورج مع عروسه الشابة ونزل ببيت ايفان كوزميتش ليستريح فى طريقه الى قلعتنا.

ولا تبعد قلعة نينيوسرن عن قلعتنا أكثر من خمسة وعشرين فرسخاً . ومعنى هذا أن نتوقع بين ساعة وأخرى أن يقوم بوجاتشيف بالهجوم علينا . ومعنى هذا أيضاً ان مصير مارى ايفانوفنا مهدد بالخطر . ونشطت مخيلتى فى تصوير الاحتمالات كلها . وغاص قلبى رعباً وخشية مما يحمله لها المستقبل . وقلت لايفان كوزميتش :

maktbtna.com

— يا ايفان كوزميتش أرجو أن تعيرنى سمعك

— ما العمل يا بطرس اندريتش ؟

— لنناقش الأمر بهدوء . ان واجبنا ولاشك يقتضينا أن ندافع عن القلعة الى النفس الأخير

— ليس فى هذا شك . ولكن ..

— عفوك . اننا يجب ان نفكر قبل ذلك فى تأمين سلامة النساء

— آه !. فعلا ! وماذا نفعل يا بطرس اندريتش ؟

— أرى أن ترسلهن الى أورنبورج إذا كان الطريق لم يزل مفتوحاً مأموناً . ولا أعتقد ان هؤلاء اللاعين انفسح أمامهم الوقت بعد للتوغل الى هذا الحد . هذا هو واجبنا الأول

— صحيح صحيح . هذا واجب

ثم التفت ايفان كوزميتش الى زوجته وقال :

— أترين يا أمى الصغيرة ؟ الحقيقة انه يجب أن نرسلكن الى مكان بعيد عن الخطر الى أن ننتهى من القضاء على الثوار

فأجابته القائدة على الفور :

— أى تغفيل ! أين هى القلعة التى لم يصل اليها رصاصهم ؟ ولماذا تكون بيلوجورسك أقل أمناً من غيرها ؟ لقد قضينا هنا بحمد الله إحدى وعشرين سنة . عشناها معاً . ورأينا البشكير والقرغيز يلقون مصرعهم أمام قلعتنا . فلماذا لايكون هنا أيضاً ختام مغامرة بوجاتشيف ؟

فأجابها ايفان كوزميتش :

— ليكن لك يا أمى الصغيرة ما تريدين . أمكثى هنا إن شئت . ما دمت تؤمنين بمناعة قلعتنا . ولكن ماشا ماذا نصنع بها ؟ إن جاءنا مدد كاف أو تمكنا وحدنا من صد بوجاتشيف فالأمرسهل . ولكن ماذا نصنع إن تمكنوا هم من الاستيلاء على القلعة ؟

— عندئذ . .

ثم تلعثمت فاسيليسا يوجوروفنا ولم تستطع أن تتم كلامها ، لأن جيشان عواطفها غلبها على أمرها . فاستطرد القائد الذى أدرك أن كلماته أحدثت فى نفس زوجته أثراً عميقاً لأول مرة فى حياته

— كلا يا فاسيليسا يوجوروفنا . لا ينبغى أن تبقى ماشا (مارى) هنا

— نعم يا أبى الصغير . ماذا نصنع ؟

— نرسلها الى والدتها فى الرضاعة فى أورنبورج

— وهل أورنبورج أكثر أمناً من هنا ؟

— الجنود هناك كثيرون . والمدافع كثيرة . والأسوار من الحجارة . وكنت أود أن تذهبى أنت كذلك الى هناك

— إنى امرأة عجوز

— أنت عجوز نعم . ومع هذا لا أظنهم يبقون عليك إن أخذوا القلعة عنوة . فان حيوانيتهم لا حد لها

فقالت القائدة :

— حسناً . سنرسل مارى الى أورنبورج . ولكن لاتمنين نفسك بابعادى من هنا . فلن أفعل ذلك . لأنه لا يروقنى وقد بلغت هذه السن أن أفترق عنك

maktbtna.com
مكتبتنا

لأنشد لنفسي قبراً على حدة في أرض غريبة . لقد عشنا معاً يا ايفان كوزميتش . ومعاً يا ايفان كوزميتش سنموت

فهز القائد رأسه وقال :

— والحق معك يا فاسيليسا يجوروفنا . وليس أمامنا وقت نضيعه في الكلام . فقومي وأعدي ماشا على عجل للسفر . وغداً صباحاً عند انبثاق النهار تشد الرحال الى أورنبورج . وربما بعثنا معها حرساً . وإن كنت أصارحك أنه ليس تحت تصرفنا الآن قوة فائضة عن الحاجة

وكأنما تذكر شيئاً فقال :

— ولكن أين هي !

فأجابته القائدة قائلة :

— لدى اكولنيا زوجة القسيس

— لماذا لم تحضر معك ؟

— أغمي على المسكينة ماشا (ماري) عند ماعلمت بسقوط نينيوسرن .

maktbtna.com

وأخشى أن تمرض بسبب هذه المفاجأة . يا إلهي ! لماذا مددت في أعمارنا الى أن نرى هذه الأيام السوداء ؟

وانصرفت فاسيليسا يجوروفنا لتتم معدات رحيل ابنتها . واستمر انعقاد المجلس الحربي في حجرة القائد . بيد اني لم أفهم شيئاً من كل ماقيل في الجلسة لأني كنت مشغول الخاطر ولم أشترك في المناقشة لأن المسأله الوحيدة التي كانت تهمني انتهى البحث فيها



وظهرت ماري ايفانوفنا ساعة العشاء . فاذا بها شاحبة الوجه محمرة العينين . وتناولنا كلنا العشاء في صمت . ونهضنا عن المائدة أسرع من المعتاد . وآب كل واحد منا الى مسكنه بعد أن ألقينا التحية على جميع أفراد الأسرة

وكنت قد نسيت سيفي في بيت القائد فرجعت لأسترده . فالتقيت بماري أمام الباب ، فقدمت إلى السيف الذى كان معها وقد همت بارساله مع رسول الى مسكني

وقالت لى مارى ايفانوفنا وهى تبكى :

— وداعاً يا بطرس اندريتش . سيرسلوننى الى أورنبورج . كتب الله لك السلامة والسعادة . وعسى أن يسمح الله فى المستقبل بتلاقينا . فان لم تكن هذه مشيئته ...

وانفجرت منتحبة . فقلت لها :

— وداعاً . وداعاً ياعزيزتى مارى . وأياً كان مصيرى فثقى ان شخصك الغالى سيكون آخر ما أفكر فيه . وان الصلاة من أجلك ستكون آخر زاد لى من هذه الدنيا

واستمرت ماشا تبكى . فأسرعت بالانصراف . لأن الموقف أصبح أقسى من أن يحتمله كلانا

maktbtna.com



الفصل الرابع عشر

هجوم الثوار

لم يغمض لى جفن طول الليل . بل إنى لم أقدم على خلع ثيابى . إذ كان فى نيتى أن أرابط منذ انبثاق الصبح عند باب القلعة الذى سترحل منه مارى ايفانوفنا . كى أتمكن من توديعها الوداع الأخير

وشعرت تلك الليلة فى نفسى بتغير كامل . ووجدت ان الاضطراب الذى أعانيه أقل ضيقاً وأخف عبئاً من تلك الكآبة السوداء التى كانت ترين على حياتى من قبل . وانقشع عنى الحزن للفراق . أو هو على الأقل قد خالطه شىء يختلف عن الحزن أيما اختلاف . خالطه أمل غامض بيد انه رقيق عذب . وامتزج به القلق الذى أوحت به تلك الأخطار المحدقة بنا ، والتوفز والتشوق الذى يثيرها الطموح النبيل فى ساحة الوغى

maktbtna.com

وبين هذه المشاعر التى تقسمتنى مرت سحابة الليل سريعاً . وهممت أن أبرح دارى وإذا بابى يفتح فجأة ويدخل الجاويش ليفاجئنى بنبأ عنيف الوقع . وهو ان جنودنا من القوزاق هجروا القلعة تحت جنح الليل ، وأخذوا معهم عنوة الصول الجديد الذى عينه القائد رغم أنفهم رئيساً لهم وهو يولاى

وكان هذا النبأ على خطورته حرياً أن يهون قليلا لولا تلك النذر الأخرى التى جاءنى بها الجاويش . وهى أن أشخاصاً مجهولين شوهدوا فى جوف الليل يرودون حول أسوار قلعتنا . فأزعجنى وروعنى مجرد التفكير فى أن مارى ايفانوفنا سوف لاتتمكن من الابتعاد عن منطقة الخطر . فألقيت الى الجاويش بأوامر مختصرة عاجلة ثم أسرعت أعدو الى بيت القائد

وكان النهار أخذ فى الانبثاق . فنزلت مسرعاً الى الشارع وإذا بى أسمع

شخصاً ينادينى باسمى فوقفت . ولحق بى ايفان انياتتش قائلا :

— أين أنت ذاهب ؟ هل لى أن اسألك ؟ ان ايفان كوزميتش موجود فى التحصينات فوق السور . وقد أرسلنى فى طلبك . لأن بوجاتشيف وصل

فسألته وأحشائى ترتعد فى جوفى :

— وهل تمكنت مارى ايفانوفنا من الرحيل ؟

فأجاب ايفان انياتتش فى أسى :

— لم يتسع أمامها الوقت . فالطريق الى أورنبورج مقطوع . والقلعة محصورة . إن الحالة سيئة يابطرس اندريتش



وتوجهنا معاً الى التحصينات فوق السور . وهى عبارة عن ربوة طبيعية حصنت بسور ومتاريس مرتجلة . وهناك كانت حاميتنا الروسية حاملة أسلحتها . والى هناك أيضاً أتوا بالمدفع العتيق منذ الليلة السابقة

ورأيت القائد يتمشى جيئة وذهاباً أمام كتيبته الصغيرة . وإذا باقتراب الخطر قد رد الى المحارب العجوز حيويته بصورة خارقة

maktbtna.com

وفى عرض السهوب . على بعد يسير من القلعة . شوهدت حفنة تبلغ نحو العشرين فارساً يبدو للوهلة الأولى أنهم من القوزاق . ولكن بينهم بضعة من عشيرة البشكير . من اليسير جداً التعرف عليهم من شكل ملابسهم وعمائمهم

وكان قائدنا يتجول بين صفوف جيشنا الصغير قائلا للجنود :

— هيا يا أبنائى . فلنظهر اليوم بأحسن مظهر ولنحسن البلاء عن أمنا الامبراطورة . ولنقم الدليل أمام العالم أجمع أننا قوم شجعان نعرف كيف نحمى رايتنا ونبر بيمين الولاء التى أقسمناها للقيصرة

وأعرب الجنود الشجعان عن صدق نيتهم فى الجهاد بهتاف مدو . وكان شفابرين واقفاً بالقرب منى ، يفحص العدو فى اهتمام شديد . ولاشك ان الرجال الذين لمحناهم فى السهوب تبينوا حركة فى القلعة . فتجمعوا زمراً وراحوا يتحدثون فيما بينهم

واكتشف القائد هذه الفرصة ، فأمر ايفان ايناتتش أن يصوب اليهم مدفعه . وتولى القائد بنفسه اشعال الفتيل . وانطلقت القنبلة . فرفت وهى

تصفر من فوق رؤوسهم من غير أن تصيبهم بأدنى مكروه . وفى الحال تفرق أولئك الفرسان وأسرعوا يركضون حتى اختفوا عن الأنظار وأضحت السهوب خالية قفراء

وفى تلك اللحظة ظهرت بيننا فاسيليسا يوجوروفنا ، تتبعها مارى ايفانوفنا التى رفضت أن تفارق أمها لحظة واحدة . وقالت القائدة :

— كيف الحال ؟ ما أخبار المعركة وتطوراتها ؟ أين العدو ؟

فأجاب ايفان كوزميتش :

— إن العدو ليس بعيداً . ولكن إن أراد الله سيكون كل شيء على ما يرام

والتفت الرجل الى ابنته وقال برقة بالغة :

— وأنت يا ماشا . هل أنت خائفة ؟

فقالت مارى وهى تغالب ضعفها :

— لا يا أبى . بل إنى أخاف أكثر وأنا وحدى فى البيت

ورمقتنى بنظرة . وهى تجتهد أن تبتسم . فتقلصت يدى على مقبض سيفى عند ما تذكرت انى تلقيته من يدها فى الليلة الماضية . كأنما عهدت به إلىّ لأتولى الدفاع به عنها

maktbtna.com

وكان قلبي يحترق داخل صدرى وأنا أتصور نفسى فارسها . كنت ظمآناً الى إثبات جدارتى بالثقة التى وضعتها فى . وانتظرت بصبر نافذ اللحظة الحاسمة

وفجأة . ظهرت جماعات أخرى من راكبي الخيول فوق مرتفع من الأرض يبعد نحو ثمانية فراسخ عن القلعة . وكأنما كانت هذه هى الفاتحة . إذ سرعان ما غطى وجه السهوب كلها بأكوام مسلحين بالحراب والسهام

وفى وسط هؤلاء الهمج برز رجل يتميز بقفطان أحمر . وفى يده سيف مهند راكباً جواداً أبيض . وكان هذا الرجل هو يوجاتشيف نفسه

مكتبتنا

ووقف يوجاتشيف عن الزحف فالتف به رجاله وخاصته . ثم رأينا بناء على أمره فيما يظهر أربعة رجال يخرجون من كتلة الناس ويقتربون بأسرع ما حملتهم جيادهم نحو تحصيناتنا . وعرفنا فيهم على الفور نفراً ممن خانونا

وكان أحد الأربعة يرفع فوق رأسه وقلنسوته صحيفة من الورق وكان زميل له يحمل على رأس حربته رأس يولاى الذى قذفه الينا من فوق السور . فتدحرج عند قدمى القائد . وصاح الخونة بنا :

— لا تطلقوا النار . بل اخرجوا لاستقبال القيصر . القيصر هنا
فلم يزد القائد فى جوابه على أن صرخ فينا :
— افتحوا نيرانكم أيها الفتيان
وأطلق الجنود رصاص بنادقهم . فدار القوزاق الذى كان يحمل الخطاب فى الهواء وسقط عن صهوة جواده . أما الباقون فهربوا مطلقين لجيادهم العنان.
وألقيت نظرة على مارى ايفانوفنا . فوجدتها وقد أثلج الرعب جسدها لمنظر رأس يولاى . ثم هزتها ضجة إطلاق النار . فهى مذهولة كأنها مسلوبة الرشد
ونادى القائد الجاويش وأمره أن يخرج من القاعة فيأتيه بالصحيفة التى كانت فى يد القوزاق المقتول . وخرج الجاويش ثم عاد وفى يده عنان جواد الرجل القتيل . وسلم الخطاب الى القائد
وقرأ ايفان كوزميتش ذلك الخطاب بصوت منخفض ثم مزقه قطعاً صغيرة. وفى الوقت نفسه أخذ المتمردون يستعدون للهجوم . وما أسرع ما كانت القذائف النارية تصفر فى آذاننا . وانصبت علينا السهام . وأخذت تنغرس من حولنا فى الأرض وفى أعمدة السور . فقال القائد :
— يافاسيليسا يوجوروفنا . ليس هنا موضع للنساء . فخذى ماشا واذهبى . وها أنت ترين الصغيرة المسكينة أقرب الى الموت منها الى الحياة
وكان صوت اطلاق النار قد ألان قلب فاسيليسا يوجوروفنا . فألقت نظرة على السهوب التى كانت تموج بتحركات كبيرة بين جمهور الأعداء . وقالت لزوجها :
— يا ايفان كوزميتش . إن الله هو المتصرف فى الحياة والموت . فهيا الآن بارك ماشا . وأنت يا ماشا اقتربى من أبيك
واقتربت مارى من ايفان كوزميتش وهى شاحبة اللون مرتعدة الأطراف وركعت على ركبتها ثم حيت أباها بالسجود الى الأرض . فرسم القائد العجوز فوقها علامة الصليب ثلاث مرات . ثم أنهضها وقبلها . وقال لها بصوت متغير من الانفعال الجياش :
— والآن يا ماشا . كتب الله لك السعادة . وأوصيك بالتوجه الى الله دائماً

makthbtna.com
مكتبتنا

فانه لن يتخلى عنك . وإذا تيسر لك رجل فاضل . فليمنحكما الله الحب والحكمة. ولتعيشا معاً كما عشنا من قبل أنا وأمك . والآن وداعاً يا ماشا . وخذيها يا فاسيليسا يوجوروفنا بسرعة الى البيت

فألقت مارى بنفسها على عنقه وأخذت تنتحب . وقالت القائدة وهى تبكى :

— فلنتعانق نحن أيضاً . وداعاً يا عزيزى ايفان كوزميتش واصفح عنى إن كنت تسببت يوماً فى غضبك

فقال القائد وهو يعانق ويقبل زوجته ورفيقة عمره :

— وداعاً . وداعاً يا أمى الصغيرة . والآن اذهبي الى البيت واذا اتسع لك الوقت فالبسى ماشا ثوبها المزركش

والمعروف انه من عادة الروس أن يدفنوا موتاهم فى أغلى الثياب . وأن تدفن العذارى فى ثياب العرس أو ما شابهها . ويسمونها الصرفان

وأسرعت القائدة منصرفة بابنتها . ووقفت أتبع مارى بنظراتى وصح ما توقعته فالتفتت الى الوراء مرة وأشارت نحوى برأسها مودعة

maktbtna.com

أما ايفان كوزميتش فعاد الينا . وقد انصرف جهده كله واهتمامه كله الى ناحية العدو . وكان المتمردون يتجمعون حول زعيمهم . وفجأة ترجلوا عن جيادهم مسرعين . فقال القائد :

— اثبتوا لهم جيداً . فها هو الهجوم قد بدأ



الفصل الخامس عشر

أنت لست القيصر

وفى تلك اللحظة دوت فى الفضاء صرخات حرب وحشية . وأقبل المهاجمون كأرجال الجراد نحو أسوار القلعة . وكان مدفعنا قد حشى . فتركهم قائدنا يقتربون جداً ثم أشعل فتيل المدفع مرة أخرى . فانفجرت القذيفة فى وسط زحامهم الذى تفرق أيدى سبأ ، لا يلوذ منهم أحد بأحد . وبقى قائدهم وحده فى المقدمة يلوح بسيفه وكأنه يستحثهم على الحماسة والثبات

وبعد أن صمتت الضجة لحظة ارتفع الصراخ حاداً عنيفاً بصورة مضاعفة. وعندئذ صاح القائد فينا بصوت جهورى :

— والآن أيها الشجعان ! افتحوا الباب واقرعوا الطبول وانشروا رايتكم وتقدموا الى الأمام ! أتبعونى !

maktbtna.com

وبعد لحظة واحدة وجدنا أنفسنا ، القائد وايفان انياتتش وأنا خارج الأسوار . أما الحامية فتخاذلت ولم يغادر أحد من رجالها مكانه . فصرخ ايفان كوزميتش !

— ماذا تصنعون هناك يا أولادى ؟ إن كان لابد من الموت فلنمت كراماً كما ينبغى فهذه هى الجندية !

وفى تلك اللحظة تكاثر الثوار علينا واقتحموا مدخل القلعة . وخفت صوت الطبل . وألقت الحامية السلاح

مكتبتنا

وكانوا قد ألقوا بى على الأرض . بيد انى نهضت من كبوتى ودخلت فى زحام الهرج والمرج الى القلعة . فرأيت قائدنا وقد جرح فى رأسه وأخذ بتلابيبه عدد من قطاع الطرق يطالبونه بالمفاتيح

وهممت أن أخف لنجدته . وإذا بعدد من القوزاق الأقوياء يقبضون على ويغلون يدى بأحزمتهم التى يسمونها القوشاق وهم يصيحون !

— انتظروا ! انتظروا لتروا ماذا سنفعل بكم يا أعداء القيصر !

وجرونا جراً على طول الشوارع . ورأينا الأهالى يخرجون من بيوتهم مبدين الطاعة والاستسلام بتقديم الخبز والملح للغزاة على راحات أيديهم . وأخذت أجراس الكنيسة تدق . وارتفعت الصيحة فجأة بأن جلالة القيصر وصل الى الميدان الرئيسى وانه فى انتظار الأسرى كى يتلقى منهم يمين البيعة

وتفرق الناس على الجانبين لاخلاء الطريق واقتادنا حراسنا بل جرونا جراً الى الميدان . فرأيت بوجاتشيف جالساً فى مقعد كبير على شرفة بيت القائد . وقد ارتدى قفطاناً أنيقاً من أفخر مايلبسه أهل القوقاز . وقد طرزت مواضع الحياكة فيه تطريزاً جميلا . وكانت قلنسوته العالية التترية مزركشة بسطور من الذهب . وتكاد تصل الى عينيه المتقدتين

وبدا وجهه لى غير مجهول . وكان زعماء القوزاق محيطين به من كل جانب . وعند أسفل الشرفة وقف الأب جراسيم شاحب الوجه مرتعد الأوصال فى يده الصليب . وخيل إلى أنه يتوسل للفاتح القاهر بموقفه الصامت من أجل الضحايا الذين يمثلون بين يديه

وفى الميدان نفسه أقاموا على عجل مشنقة . فلما اقتربنا قام جماعة من البشكير بتنحية الناس ثم قدمونا الى بوجاتشيف . فخفتت أصوات الأجراس . وساد صمت عميق جداً فى كل مكان . وصاح القاهر :

— من منكم القائد ؟

فخرج صول القوزاق مكسيمتش من بين الصفوف وأشار الى ايفان كوزميتش فنظر بوجاتشيف الى الشيخ المسكين نظرة صارمة وقال :

— كيف تجاسرت على مناهضتى أنا امبراطورك ؟

فاستجمع القائد ما بقى من قوته التى ضعضعها جرحه البالغ وقال بصوت ضعيف ولكنه حازم راسخ :

— أنت لست امبراطورى . أنت مغتصب للعرش قاطع طريق !

فقطب بوجاتشيف جبينه ورفع فى الهواء منديله الأبيض . وفى الحال قبض بضعة من القوزاق على القائد المسكين وجروه جراً الى المشنقة . وأركبوه على

maktbtna.com

حصان منكساً . ثم ظهر البشكيرى المشوه الذى عذبناه فى الليلة السابقة وقد أمسك فى يده حبلا . وبعد لحظة رأيت المسكين ايفان كوزميتش معلقاً فى الهواء وبعد ذلك قدموا الى بوجاتشيف ايفان انياتتش . فقال له بوجاتشيف :

— قدم البيعة للامبراطور بطرس الثالث

فأجابه الملازم الطبيب بعبارات قائده نفسها :

— أنت لست امبراطورنا . أنت قاطع طريق يا عم . أصلحك الله !

فأشار بوجاتشيف بمنديله مرة أخرى . فاقتيد ايفان انياتتش الطيب القلب وشنق بالقرب من قائده القديم . وحل دورى أنا

وثبت نظراتى بجسارة على وجه بوجاتشيف وأنا أتأهب لتكرار جواب رفيقى السلاح الكريمين ثم ألقى بعد ذلك مصيرهما . وعندئذ أدهشنى غاية الدهشة أن ألمح بين الثوار زميلنا شفابرين الذى اتسع أمامه الوقت لحلق شعره فى شكل دائرة واندس داخل قفطان قوقازى

واقترب شفابرين من بوجاتشيف وهمس فى أذنه شيئاً . فصاح بوجاتشيف من غير أن يكلف نفسه النظر نحوى أو سؤالى وقال فوراً :

maktbtna.com

— أشنقوه

فوضعوا الحبل فى عنقى . وأخذت أتلو فى سرى صلاة قصيرة وأنا أستودع الله توبة نصوحاً من كل أخطائى . وأتوسل اليه أن ينقذ جميع الذين يحبهم قلبى . ووصلنا الى موضع المشنقة . والقتلة يقولون لى :

— لا تخف لا تخف !

ولعلهم أرادوا أن يشجعونى على مواجهة الموت وإذا بصرخة تشق الفضاء

— تمهلوا يا ملاعين ! توقفوا !

فكف الجلادون أيديهم عنى . ونظرت فاذا سافيليتش وقد جثا عند قدمى بوجاتشيف يقول له بضراعة :

مكتبتنا

— يا أبى ويا إبن والدى ! ما حاجتك الى قتل ابن الكرام هذا ؟ انه شريف ابن شريف . فاطلق سراحه تنل فدية طيبة

— القدوة والأمثولة يا رجل !

— لن يضيع عليك شىء من هذا . سيخاف الآخرون بما فيه الكفاية إن تكرمت فأمرت بشنقى أنا العجوز وتركت هذا الفتى !

فأشار بوجاتشيف بيده اشارة هينة ففكوا وثاقى وقالوا لى :

— إن مولانا وأبانا قد صفح عنك

وفى هذه اللحظة لا أستطيع أن أقول انى كنت سعيداً غاية السعادة بنجاتى. ولكنى لا أستطيع أيضاً أن أقول انى ندمت على تلك النجاة

وكانت حواسى مضطربة غاية الاضطراب . واقتادونى مرة أخرى أمام الغاصب . ثم جعلونى أجثو تحت قدميه . ومد بوجاتشيف يده القوية نحوى . وصاح الكل من حولى :

— قبل يده الكريمة ! ألثم يده !

بيد انى كنت أفضل أشنع العذاب على ذلك الهوان الذليل . وسمعت سافيليتش الذى كان واقفاً ورائى تماماً يدفعنى فى ذراعى ويقول :

— يا أبى الصغير بطرس اندريتش . لا تكن عنيداً ! ما الذى سيكلفك هذا ؟ أبصق ثم قبل يد الحلوف .. قبل يده !

ولم أتحرك . فجذب بوجاتشيف يده وقال باسماً :

— إن صاحب السعادة فيما يظهر أذهله الفرح بالنجاة . انهضوه

maktbtha.com

وأنهضونى ثم تركونى طليق السراح فوقفت أشهد بقية فصول المهزلة المهينة . رأيت الأهالى يتقدمون لأداء يمين الولاء وإعطاء البيعة . كان الواحد منهم يتقدم تلو الآخر فيقبل الصليب فى يد الغاصب ثم يركع لتحيته

وبعد الأهالى جاء دور الجنود أعضاء الحامية . وكان خياط الثوار يستعمل مقصاً كبيراً فى قص ذيول ستراتهم علامة على اندماجهم فى جيش بوجاتشيف وكانوا يهزون رؤوسهم ويلمسون بشفاههم يد بوجاتشيف . وأخيراً أعلن الغاصب عفوه عنهم عفواً شاملا وقبوله اياهم فى عسكره

دام ذلك كله نحو ثلاث ساعات . نهض بوجاتشيف فى ختامها من مقعده الكبير وهبط من الشرفة يتبعه زعماء جماعته . فقربوا منه حصاناً أبيض اللون عليه سروج فاخرة ، ومد اثنان من القوزاق أذرعهم ليعينوه على الركوب

والتفت الغاصب الى الأب جراسيم وقد تنبه لوجوده فجأة وقال :

— سأتعشى عندك الليلة

وعندئذ دوت فى الفضاء صيحة امرأة . وجر بعض هؤلاء اللصوص فوق

الشرفة فاسيليسا يوجوروفنا ، مشعثة الشعر نصف عارية . وكان أحد هؤلاء الرجال متدثراً بمعطفها . أما الباقون فكانوا يحملون فى أيديهم المراتب والصناديق والثياب وأدوات الشاى وسائر ما فى البيت من أشياء

وكانت العجوز المسكينة تصرخ كالمجنونة

— يا آبائى . دعونى بالله يا آبائى . خذونى الى ايفان كوزميتش

وفجأة لمحت المشنقة وعرفت جثة زوجها . فجن جنونها وصاحت :

— ياملاعين . ماذا صنعتم ؟ يانور حياتى يا ايفان كوزميتش . يا أشجع الجنود وأكرم الأبطال ! إن حراب البروسيين لم تستطع أن تصيبك بسوء . ورصاص الأتراك لم ينل منك منالا . فكيف هلكت أمام سافل هارب من الجندية ؟

فلم يزد بوجاتشيف على أن قال :

— اسكتوا هذه الساحرة العجوز

ولم يتردد قوقازى شاب فرفع سيفه وأهوى به على أم رأسها . فسقطت ميتة عند أسفل سلالم شرفة دارها على الفور

maktbtna.com

وانصرف بوجاتشيف . وجميع الناس على آثاره . مشغولين به وبتتبع حركاته . لم يلتفت منهم أحد لحظة واحدة لجثث معلقة على المشانق . ولعجوز مدرجة بدمائها فوق الثرى



الفصل السادس عشر

أين مارى ؟

انفض السامر وخلا الميدان . ووقفت أنا جامداً فى موضعى . لا أملك جمع شتات أفكارى المضطربة من أثر تلك الانفعالات الفظيعة

وكان قلقى على مصير مارى ايفانوفنا هو الذى يعذبنى أكثر من أى شىء آخر . أين هى الآن ؟ وماذا جرى لها ؟ وهل اتسع أمامها الوقت كى تختفى ؟ وهل خط انسحابها مأمون ؟

تكاثرت هذه الأفكار على نفسى . فدخلت منزل القائد . وإذا كل شىء خاو على عروشه . فالمقاعد والموائد والدواليب أحرقت إحراقاً . أما آنية الخزف والزجاج فكانت حطاماً والخراب الفظيع يسود كل شىء

maktbtna.com

وصعدت بسرعة السلم الصغير الذى كان يؤدى الى حجرة مارى ايفانوفنا. وكانت هذه أول مرة أفكر فى دخولها فى حياتى

ووجدت سريرها مقلوباً . والدولاب مفتوحاً وقد نهب كل ما فيه . والقنديل لم يزل مشتعلا أمام طاقة للأيقونة وجدتها نهبت فظلت الطاقة خاوية ومن تحتها السراج الموقد والشىء الذى لم يأخذوه هو مرآة صغيرة معلقة بين الباب والنافذة . ولكن المرآة التى طالما انطبعت صورتها فى صفحتها كانت غفلا لا تحمل أى أثر من آثار تلك الصحبة الطويلة

أين ترى ذهبت صاحبة هذه الصومعة العذرية البسيطة ؟

وخطرت لى خاطرة بشعة . تصورت مارى بين أيدى اللصوص . فانقبض قلبي وانفجرت منتحباً أغمغم اسمها بصوت مرتفع

وفى هذه اللحظة سمعت صوتاً خافتاً . وخرجت بلاشكا شاحبة الوجه كالموتى

من وراء الدولاب . فقالت لى وهى تضم راحتيها :
— آه يا بطرس اندريتش ! يا له من يوم ! ويا لها من أهوال !
فسألتها بحدة وصبر نافذ :
— أين مارى ايفانوفنا ؟ ماذا تصنع مارى ايفانوفنا ؟
فأجابتنى بلاشكا :
— الآنسة على قيد الحياة . مختفية عند اكولنيا زوجة القسيس
فصرخت فى فزع :
— عند زوجة القسيس ؟ يا للمبصة ! يوجاتشيف هناك !
وأسرعت الى خارج الحجرة . وهبطت الى الشارع فى قفزتين . وأخذت أجرى وأنا ذاهل نحو بيت القسيس . فوجدته يضج بالأغانى والصياح والقهقهة الصاخبة . لأن يوجاتشيف كان جالساً الى المائدة مع صحبه
وكانت بلاشكا قد تبعتنى فأرسلتها لتنادى اكولنيا خلسة . وبعد لحظة خرجت زوجة القسيس الى الدهليز وفى يدها قارورة فارغة . فسألتها باضطراب لا يوصف :
— ياللسماء ! أين مارى إيفانوفنا؟
maktbtna.com
فأجابتنى زوجة القسيس ببلادة وثرثرة :
— الحمامة الوديعة نائمة . نائمة فى فراشى وراء الستائر . آه يا بطرس اندريتش كانت ستحل بنا مصيبة كبيرة ولكن الله شملنا برحمته . فسوى كل شيء
— ماذا تعنين ؟
— تصور ان هذا اللعون ما أن جلس الى المائدة حتى أخذت المسكينة تتوجع وتئن من الحمى وهى فاقدة الوعى . فكدت أموت خوفاً لأنه سمعها
— وماذا فعل بربك ؟
مكتبتنا
— سألنى اللعون «من الذى يئن هكذا عندك يا عجوز ؟» .. أنا عجوز ؟
— أبداً . ولكن بربك قولى ماذا حدث ؟
— تغاضيت وانحنيت لهذا اللص حتى مست جبهتى الأرض . وقلت «انها بنت أختى يا مولانا القيصر . وهى مريضة فى فراشها منذ أكثر من أسبوع»
— أهذا كل شيء ؟

— صبراً . سأخبرك بكل شيء . سألني اللص «وهل بنت أختك صغيرة»؟ فقلت له « نعم صغيرة يا مولانا القيصر » فقال اللص « إذن هيا ياعجوز أريني بنت أختك الصغيرة هذه » .. أنظر حرج الموقف !!

— نعم نعم وبعد ؟

— وبعد . لقد غاص قلبي الى قدمي ولـكن ماذا كنت أفعل ؟ هلا خبرتني؟

— قولى بربك ماذا فعلت ؟!

— قبلت الأرض بين يديه وقلت « سمعاً وطاعة يامولانا القيصر . ولـكن الفتاة لا قوة لديها كي تقوم وتمثل بين يدى عظمتك »

— تخلص جميل . اقتنع طبعاً ؟

— أبداً وحياتك . قال هذا اللجوج « لا بأس يا عجوز سأذهب بنفسى لأراها »

— وهل ذهب ؟

— طبعاً ذهب . ذهب اللعون خلف الستائر . ورفع ستارة الفراش ..

— ثم ماذا ؟

— لا شيء . حدق فيها ملياً بعينيه النجستين ولم يزد على ذلك . لأن الله أنقذنا . أتصدق اننا كنا متأهبين أنا والقسيس أن نموت كالشهداء دفاعاً عنها؟ ولحسن الحظ لم تفق الحمامة السكينة ولم تعرفه . يا إلهى ! ماذا حكمت به علينا ؟ من الذى يصدق ان المسكين ايفان كوزميتش قتل ؟ وفاسيلبسا يوجوروفنا وايفان انياتتش قتلا ؟! وهذا الأخير ماذا جنى ؟ ثم بهذه المناسبة

— ماذا ؟

— كيف أبقوا عليك أنت ؟ وما رأيك فى شفابرين ومكسيميتش ؟ ان شفابرين حلق شعره مستديراً وها هو جالس فى الداخل معهم . انه بارع بلا شك . وعند ما تحدثت أمامه للص عن بنت أختي المريضة رمقنى بنظرة كأنها ضربة خنجر . ومع هذا لم يفضحنى . وهى يد لا يمكن أن أنساها له

وفى هذه اللحظة رنت صيحات الجالسين الى المائدة ومن بينهم صوت الأب جراسيم . وطلب اللصوص مزيداً من الخمر . فنادى القسيس زوجته . فقالت :

— عد الآن الى مسكنك يابطرس اندريتش . عندى أشيـاء ومشاغل أخرى فلا يتسع وقتى الآن لثرثرتك ! واعلم انك إن وقعت فى يدهم الآن

maktbtna.com

فسيصيبك منهم مكروه شديد وهم سكارى . مع السلامة يابطرس اندريتش . وما هو مكتوب سيتم بحذافيره . ولعل الله لا يتخلى عنا



ودخلت زوجة القسيس بيتها . وعدت أنا الى مسكني وقد هدأ بالي قليلا. وفيما أنا أجتاز الميدان رأيت جملة جنود من البشكير يتزاحمون حول المشنقة لانتزاع أحذية المشنوقين . فتمالكت غضبي بجهد جهيد لأني أدركت عقم الاعتراض على تلك الأفعال

وكان اللصوص يجوبون القلعة وينهبون مساكن الضباط . وفي كل مكان كانت تسمع صيحات الثوار وهم يعربدون ويسكرون

ولما رجعت الى البيت التقيت بسافيليتش على عتبته . فلما رآني صاح :

— الحمد لله ! لقد ظننت الأوغاد ألقوا القبض عليك ثانية . آه يا أبي بطرس اندريتش ! أتصدق ؟ ان اللصوص سلبونا كل شيء . الثياب الخارجية والداخلية . والأدوات والأواني . ولم يتركوا لنا شيئاً . ولكن ما أهمية ذلك ؟ لله الحمد والشكر انهم على الأقل لم يأخذوا حياتك ! ولكن ألم تعرف ياسيدي زعيمهم ؟

maktbtna.com

فقلت متعجباً :

— كلا لم اعرفه . من تراه يكون ؟

— وكيف ذلك يا أبي الصغير ؟ هل نسيت بهذه السرعة ذلك الصعلوك السكير الذي أخذ منك اللفعة الفرو يوم العاصفة الثلجية . اللفعة المصنوعة من فراء الأرنب الجديدة التي لم تستعمل . وكانت صغيرة عليه فتفتقت مواضع الحياكة كلها وهو يدس جثته فيها ؟

فكاد يغشى عليّ من الدهشة . وهكذا كان الشبه بين بوجاتشيف وذلك الدليل صاعقاً . فاقتنعت ان بوجاتشيف هو بعينه ذلك الرجل . واتضح لي الآن سبب عفوه عني

مكتبتنا

وتولاني التعجب الذي لا حد له من التصاريف العجيبة للأقدار . وكيف ان ملفعة غلام أعطيت في لحظة كرم الى صعلوك قد أنقذتني من حبل الجلاد . وكيف ان صعلوكا عربيداً يجوب الحانات والمواخير هو الذي يحاصر الآن القلاع ويهز قواعد الامبراطورية الراسية

وأخيراً قال لى سافيليتش فى إخلاصه المعهود :

— ألا تتفضل فتأكل شيئا ؟

ولما رآنى صامتا استطرد :

— ليس فى البيت شيء . هذا صحيح . ولكنى سأنقب فى كل مكان وأعد لك شيئا

وخرج لينفذ خطته . أما أنا فبقيت وحدى أفكر فيما سأصنع . إن عدم مغادرة القلعة التى خضعت لذلك اللص . أو الانضمام لشرذمته . كلاهما عمل غير لائق بضابط . والواجب يقتضينى أن أذهب الى حيث يمكننى أن أسدى نفعا الى وطنى فى الظروف العصيبة التى يجتازها الآن

بيد ان غرامى كان يدفعنى بقوة لا تقل عن حب الوطن كى أبقى بالقرب من مارى ايفانوفنا لأحميها وأكون المدافع عنها . ومع انى كنت أتوقع تغيراً قريباً لا محيص عنه فى مجرى الحوادث والموقف العسكرى . إلا أننى لم أتمالك نفسى من الاضطراب وأنا أتمثل خطورة الموقف

وقطع على حبل تفكيرى وصول جندى قوزاقى جاء يركض ليخبرنى ان جلالة القيصر يدعونى للمثول لديه . فسألته وأنا أتأهب لتنفيذ الأمر :

— وأين هو ؟

— فى بيت القائد . فبعد المائدة ذهب عظمته الى الحمام هناك . وهو الآن راقد للراحة . آه ياسيدى ! إن منظره وهو يأكل يكفى للحكم بعظمته . فقد تناول فأكل حلوفين رضيعين مشويين .. ثم ذهب الى الحمام وهو فى أقصى درجات السخونة لم يطقه أحد من رفاقه . وأحدهم أغمى عليه من الحرارة فأفاقوه بماء بارد على رأسه . هذه آيات عظمة ملكية لا شك فيها .. ويقال انه لما تعرى فى الحمام أظهر لمن معه علامة القيصرية واضحة . فعلى أحد ثدييه نقش نسر له رأسان فى حجم الريال . وعلى الثدى الآخر نقش صورته شخصياً

ولم أجد موجباً لمناقضة القوزاقى فى مزاعمه . وتبعته الى بيت القائد وأنا أجتهد فى تحضير الموقف بينى وبين بوجاتشيف وأفكر ماذا سيتمخض عنه وليصدقنى القراء إذا قلت أننى لم أشعر بالطمأنينة

maktbtna.com
مكتبتنا

الفصل السابع عشر

لعبة خطرة

وكان الظلام قد بدأ يخيم عندما وصلت الى بيت القائد . وكانت المشنقة تبدو وسط الظلام رهيبة بشعة . وجثة زوجة القائد المسكينة لم تزل أسفل الشرفة وبالقرب منها جنديان من القوزاق واقفان للحراسة

ودخل الرسول الذى أحضرنى ليعلن نبأ وصولى . ثم عاد على الفور وأدخلنى الى تلك الحجرة التى ودعت فيها بالأمس فقط مارى ايفانوفنا

وبدت لى فيها صورة عجيبة جداً . فقد مدت مائدة بسط فوقها مفرش . وملئت بالزجاجات والأقداح . وجلس فى صدرها بوجاتشيف ومن حوله نحو عشرة من زعماء القوزاق فى قلانسهم وقمصانهم الملونة . وقد رفع النبيذ حرارتهم . فاحتقنت وجوههم وتوهجت عيونهم . ولم أر بينهم الخونة الجدد ، ولا سيما شفابرين وصول القوزاق القديم . فلما رآنى بوجاتشيف قال :

— أهذا أنت يا صاحب السعادة ؟ مرحباً بك . وكرامة لك . اتخذ لك مجلساً أمام مائدة الوليمة !

فتقارب الجالسون . وجلست بينهم صامتاً عند طرف المائدة . وكان الى جوارى شاب قوزاقى جميل الصورة ، صب فى كأسى شيئاً من الخمر لم أمد اليه يدى . لأنى كنت مشغولا باشباع فضولى بالنظر الى تلك المجموعة

وكان بوجاتشيف جالساً فى مكان الشرف فى الصدر . وقد اتكأ الى المائدة واعتمد بلحيته السوداء فوق قبضة يده الضخمة . وملامح وجهه المتناسقة اللطيفة لا يبدو عليها شىء من الخشونة أو الضراوة . وكان يكثر من توجيه الحديث الى رجل فى نحو الخمسين من عمره . يدعوه أحياناً الكونت .

وأحياناً أخرى تيموفيتش . وأحياناً ثالثة يقول له يا عم !

وكان الجميع يعاملون بعضهم بعضاً معاملة الأنداد والرفاق . ولا يبدون اعتباراً ملحوظاً جداً لزعيمهم . وكانوا يتحدثون عن هجوم الصباح وعن نجاح حركتهم وعن عملياتهم القادمة . وراح كل واحد منهم يتفاخر بما أتاه من الأعمال ، ويبسط رأيه ويعارض بكل حرية رأى بوجاتشيف

وفى ذلك المجلس الحربى العجيب اتخذوا القرار بالزحف على أورنبورج . وهى حركة جريئة . وأوشكت فعلا أن تكلل بالنجاح . وحدد التحرك فى الغد

واحتسوا بعد ذلك كأساً أخرى . ثم نهضوا عن المائدة واستأذنوا فى الانصراف من بوجاتشيف وأردت أن أحذو حذوهم . بيد أن بوجاتشيف قال لى :

— امكث حيث أنت . أريد أن أحدثك فى أمر

وخلا المجلس لنا نحن الاثنين

ودام الصمت بيننا بضع لحظات . وبوجاتشيف يرمقنى بنظرة ثابتة ، ويغمز بين الحين والحين بعينه اليسرى غمزة تدل على المكر والسخرية . وأخيراً انفجر فى ضحكة طويلة مدوية ، تنم عن بهجة طليقة لا تصنع فيها ، حتى اننى لم أملك نفسى فشرعت أضحك من غير أن أعرف السبب . وقال لى :

— والآن يا صاحب السعادة . اعترف أنك خفت عندما وضع صبيانى الحبل فى عنقك !؟ أراهنك أن السماء بدت لك عندئذ فى حجم فراء الخروف . وقطعاً كنت الآن تهتز تحت السماء لولا خادمك . ولولا أنى عرفت ذلك العجوز المنحوس على الفور . وهل كان يخطر ببالك يا صاحب السعادة أن الرجل الذى هداك الى الطريق فى العاصفة هو القيصر المعظم شخصياً ؟

وعندما قال هذه العبارة الأخيرة بدا عليه الجد والغموض واستطرد :

— إنك أخطأت فى حق جلالتنا . ولكنى عفوت عنك لفضيلتك . ولأنك أديت لى خدمة حينما كنت مضطراً الى الاختفاء من وجه أعدائى . وسترى أنى سأغدق عليك من عطفى وإنعامى الشىء الكثير متى استرددت امبراطوريتى . فهل تعاهدنى أن تخدمنى باخلاص ؟

وبدا لى سؤال هذا اللص وتبجحه مضحكين . حتى أنى لم أتمالك ابتسامة

maktbtna.com

طافت بفمي . فقطب جبينه وسألني :

— لماذا تضحك ؟ ألا تؤمن أنني القيصر المعظم ؟ أجبني بصراحة

فاضطربت . لأن الاعتراف بصعلوك امبراطوراً وقيصراً أمر لم أكن أستطيع الاقدام عليه . لأنه في نظري جبن لا يغتفر . ومن جهة أخرى إن نعته بالمغتصب أو الدعي في وجهه ، فكأني ألقي بيدي الى التهلكة . ثم ان الضحية التي لم تزل معلقة على المشنقة كانت صورتها تداعب خيالي دائماً وتكفي لاقناعي بأن تلك الشجاعة الجوفاء لا طائل تحتها . فلم أدر ماذا أقول

وظل بوجاتشيف ينتظر جوابي في صمت رهيب مطبق . ولم أزل الى اليوم أتذكر تلك اللحظة فأرضى عن نفسي لأن الشعور بالواجب انتصر في نفسي على الضعف البشري . فقلت ليوجاتشيف :

— اسمع . سأقول لك الحقيقة وسأجعلك أنت حكما

— تكلم

— أأستطيع أن أعتبرك القيصر ؟ . إنك رجل ذكي . وستفطن أنني أكذب

maktbtna.com

— ومن أكون إذن في نظرك ؟

— الله أعلم . ولكن كائناً من كنت . أنت تلعب لعبة خطرة جداً

فرمقني بوجاتشيف بنظرة سريعة عميقة وقال :

— إذن أنت لا تعتقد أنني الامبراطور بطرس الثالث ؟ ليكن لك هذا . ألا يوجد سبيل لنجاح ذوي الهمة والبأس ؟ ألم ينجح من قبلي كثيرون راموا هذا المرام ؟ ظن بي ما شئت . ولكن لا تتركني . وماذا يهمك من أمري أو أمر غيري ؟ . إخدمني باخلاص أجعل منك مارشالا وأميراً . فما رأيك ؟

مكتبتنا

فأجبته في حزم تام :

— كلا . إني رجل شريف . وقد أديت يمين الولاء للجلالة القيصرة . فلا أستطيع أن أخدمك . وإن كنت حقاً تريد بي خيراً ، فأرسلني الى اورنبورج

فأخذ بوجاتشيف يفكر ثم قال :

— وهل تعدنى إن أرسلتك الى هناك ألا تحمل على الأقل السلاح ضدى ؟

فأجبته بالحزم عينه :

— وكيف تريدنى أن أعدك بذلك ؟ أنت شخصياً تعلم أن ذلك لا يتوقف على إرادتى . فان حدث أنهم أمرونى بالمسير اليك فسألبى ذلك الأمر . وأنت الآن رئيس . وتريد أن يطيعك مرؤوسوك . فكيف أستطيع أن أرفض الخدمة إذا كانوا فى حاجة الى خدمتى ؟ . إن رأسى بين يديك . فان تركتنى حراً طليقاً فشكراً لك . وإن قتلتنى فليعذبك الله . ولكن ها أنا قد قلت لك الحق كله

وأعجبت صراحتى بوجاتشيف فقال لى وهو يضربنى على كتفى :

— لكن . ينبغى أن نعاقب حتى النهاية ، أو نعفو حتى النهاية . اذهب فأنت حر الى أى جهة شئت . وافعل كل ما بدا لك . وتعال هنا غداً لتسلم علىّ مودعاً . والآن اذهب ونم فانى أريد كذلك أن أنام

وتركت بوجاتشيف وخرجت الى الطريق . وكان الليل هادئاً بارداً . والقمر والنجوم فى غاية الاشراق ، وضوؤها ينصب انصباباً على الميدان والمشنقة . وكل شىء هادىء ومعتم فى سائر أنحاء القلعة . لم يكن هناك مكان واحد مضىء سوى الحانة التى كان ينبعث منها صراخ الشاربين المتأخرين

وألقيت نظرة على بيت القسيس فوجدت الأبواب والنوافذ مغلقة . وكان كل شىء يبدو فى غاية الهدوء . فرجعت الى مسكنى ووجدت سافيليتش الذى كان يولول لغيابى . فلما علم أننى أصبحت حراً تماماً كاد يطير من الفرح . وقال لى وهو يرسم على صدره علامة الصليب :

— الحمد والشكر لك يا رب ! سنغادر غداً عند انبثاق النهار هذه القلعة ونذهب فى حفظ الله . أما الآن فقد أعددت لك شيئاً صغيراً . فكل يا أبى الصغير ثم نم الى الصباح هادئاً ناعم البال

واتبعت نصيحته . فبعد تناول العشاء بشهية طيبة ، نمت على الأرض عارياً تماماً . والتعب الشديد ينهك جسمى وذهنى على السواء

maktbtna.com
مكتبتنا

الفصل الثامن عشر

فارقت ماري

في ساعة مبكرة جداً أيقظني قرع الطبول . فتوجهت على الفور الى الميدان . وهناك وجدت كتائب بوجاتشيف وقد أخذت تصطف حول المشنقة التي لم تزل معلقة فيها جثث ضحايا الأمس

وركب القوزاق خيولهم . وكون المشاة تشكيلات منتظمة وأسلحتهم في أيديهم والرايات تخفق منشورة فوق رؤوسهم ورأيت معهم بضعة مدافع عرفت من بينها مدفعنا العتيق ، وقد وضع فوق نقالات ميدان

ووقف جميع السكان متجمعين في موضع واحد في انتظار ظهور الغاصب. وأمام شرفة بيت القائد وقف فارس قوقازي وبيده عنان جواد أبيض رائع من سلالة قرغيزية .. وتلفت أبحث ببصري عن جثة زوجة القائد . فوجدتهم ألقوا بها في أحد الجوانب وغطوها بحصير حقير من الليف

وأخيراً خرج بوجاتشيف من المنزل . فخلعت الجماهير القلانس تحية وإكباراً وتوقف بوجاتشيف فوق الشرفة وألقى بتحية الصباح على الجميع . وعندئذ تقدم منه أحد زعماء رهطه وبين يديه كيس مملوء بقطع نقود من النحاس ، راح بوجاتشيف يملأ منه قبضته وينثر على الناس براحتيه . فتسابق الشعب وتدافع لالتقاط النقود . وجعلوا يضربون ويركلون بعضهم بعضاً

والتف زعماء عصابة بوجاتشيف حوله . فرأيت من بينهم الضابط شفابرين. ونظرت اليه فتلاقت نظراتنا . وتبين في نظرتي الازدراء والاحتقار ، فحول عينيه عني بحركة تدل على المقت الحقيقي والسخرية المموهة

وانحنى بوجاتشيف وأنا واقف وسط الزحام فأومأ نحوي برأسه ودعاني

maktbtna.com

للدنو منه . فلما فعلت قال لى :

— إسمع . ارحل فى هذه اللحظة بالذات الى أورنبورج . واحمل عنى هذه الرسالة الى حاكمها والى جميع الجنرالات

— ماذا أقول لهم ؟

— قل لهم عن لسانى أن ينتظروا قدومى فى مدى أسبوع

— أهو إنذار ؟

— إنصحهم على كل حال أن يتلقونى بالخضوع والمحبة البنوية . وإلا فلن يفلحوا فى تجنب ما أصبه عليهم من عذاب شديد . أفهمت ؟

— فهمت ...

— مع السلامة ياصاحب السعادة !

والتفت بعد ذلك نحو الشعب وأشار الى شفابرين قائلا :

— هاهو يا أولادى قائدكم الجديد فى هذه القلعة . أطيعوه فى كل شىء . وهو مسئول أمامى عنكم وعن القلعة

فوقع على هذا القول وقوع الصاعقة . فما دام شفابرين أصبح سيد هذا الموقع . فستكون مارى واقعة تحت سلطانه

maktbtna.com

يا سبحان الله ! ماذا سيكون من أمرها ؟

ورأيت بوجاتشيف يهبط الشرفة . وقدموا اليه جواده الأبيض . فقفز بسرعة فوق السرج . ولم ينتظر مساعدة القوزاق الذين تأهبوا لمساعدته على الركوب . وعندئذ رأيت عبدى سافيليتش يخرج من بين صفوف الناس ويقترب من بوجاتشيف ويقدم اليه صحيفة طويلة من الورق . ولم أستطع أن أتصور ماذا يمكن أن يكون وراء ذلك . فوقفت مبهوتاً

وسأله بوجاتشيف بكل وقار :

— ما هذا ؟

مكتبتنا

فأجابه سافيليتش بمثل وقاره :

— إقرأ تعرف

فتناول بوجاتشيف الورقة وتفحصها طويلا بمزيد من الجد والاهتمام . وأخيراً نظر اليه وقال :

— إن خطك ردىء جداً لا يقرأ . وأنظارنا الثاقبة لا تستطيع أن تحل

هذه الطلاسم . أين كبير سكرتاريينا ؟

فتقدم غلام حديث السن فى ثياب الأومباشى جرياً نحو بوجاتشيف . فقدم اليه الغاصب العريضة وقال :

— إقرأها علينا بصوت مرتفع

وكنت أنا شديد التشوق لمعرفة الموضوع الذى نبت فى رأس خادمى أن يكتب به عريضة الى بوجاتشيف . وشرع رئيس السكرتارية يتهجى بصوت رنان جهورى ما يأتى :

— عدد اثنين روب دى شامبر . أحدهما من البركال والآخر من الحرير المخطط . ثمنها ستة روبلات

فقاطع بوجاتشيف السكرتير صائحاً وقد قطب جبينه :

— ما معنى هذا ؟

فأجابه سافيليتش بهدوء قاتل :

— دعه يقرأ وستعرف

واستطرد رئيس السكرتارية فى القراءة

— كسوة عسكرية من الجوخ الأخضر الفاخر ثمنها سبعة روبلات . وسروال من الجوخ الأبيض الناصع ثمنه خمسة روبلات . وعدد اثنين قميص من الكتان الهولندى مع أكمام للغيار . ثمنهما عشرة روبلات . صندوق صغير مزخرف وبه طاقم شاى كامل . ثمنه روبلان ونصف ..

maktbtha.com

وفرغ صبر بوجاتشيف فصاح :

— ما كل هذا الهذيان والتخريف ؟ ما شأن جلالتنا بطاقم الشاى والبنطلونات وأكمام الغيار ؟

فتنحنح سافيليتش على مهل . ثم شرع يفسر الموضوع بهدوء

— على رسلك ياأبى الصغير . وتكرم فاسمح لى أن أحيطك علما بأن هذه فاتورة بممتلكات سيدى التى نهبها الأوغاد

فصرخ بوجاتشيف يسأله بصوت كالرعد :

— أى أوغاد تعنى ؟

فتصنع سافيليتش لطم خديه وقال :

— قطع الله لسانى . انه دائماً يزلف هكذا . ويخوننى فيلتوى فى التعبير

عفوك يا أبى الصغير . انهم ليسوا أوغاداً . أما هذا فلا ، علم الله . ولـكن ذلك لا يمنع ان صبيانك خربوا وسرقوا ممتلـكات سيدى . لا حيلة فى إنكار هذه الواقعة . ومن فضلك لا تغضب إن كنت قد زللت فى التعبير أو زلت أيديهم فأخذت ممتلـكات سيدى . فان للحصان أربعة قوائم كما تعلم . ومع هذا فقد يكبو الحصان . أرجو أن تأمر بقراءة الباقى الى النهاية

فزمجر بوجاتشيف قائلا :

— إقرأ لنرى

فواصل السكرتير القراءة بصوته الرنان

— بطانية من الصوف الايرانى . وبطانية أخرى من التفتاه . ثمنهما أربعة روبلات . وعباءة من فراء الثعلب مبطنة بالحرير الأحمر ثمنها أربعون روبلا . ويمكن أن يضاف الى هذا أيضاً عباءة صغيرة من فراء الأرنب الجبلى بحالة جيدة جداً أعطيت لعظمتكم فى مكان ما بالسهوب وثمنها خمسة عشر روبلا

فتوهجت عينا بوجاتشيف كالجمر فجأة وصاح :

— ما هذا الـكلام ؟

وأعترف هنا انى خفت على هـذا الرجل العجوز المسكين . ورأيته يستعد للادلاء بتوضيحات جديدة قد تزيد الطين بلة . وإذا بوجاتشيف يقاطعه صائحاً وهو ينتزع الورقة من يدى السكرتير ويقذفها فى وجه سافيليتش

— كيف تجاسرت على رفع هذيان كهذا الى مقامنا ؟ أيها الشيخ الخرف ! هل نهبوك ؟ يا لها من مصيبة حقاً ! ولـكنك ينبغى أيها الغراب العجوز أن تصلى لربك الى الأبد داعياً لى ولغلمانى . لأنك أنت وسيدك لم تشنقا هاهنا مع سائر المتمردين على مقامنا ..

وهز رأسه بغضب واستنكار واستطرد :

— أتذكرنى بعباءة من جلد الأرنب ؟ أنا مستعد أن أعطيك عباءة من جلد الأرنب أحسن منها ! ولـكن أتعلم انى سأجعلهم يسلخونك حياً ليصنعوا من جلدك عدداً من العباءات لن تعيش لتحصيه !

وإذا سافيليتش يجيبه بكل ثبات وبرود :

— لك أن تصنع بى ما تشاء . ولـكنى لست انساناً حراً . أنا عبد رقيق . ومسئول عن ممتلـكات سيدى الصغير أمام سيدى الـكبير

maktbtna.com
مكتبتنا

ويبدو ان بوجاتشيف كان فى نوبة من نوبات الكرم والسخاء . فأشاح برأسه وانطلق من غير أن يقول الكلمة المرهوبة . وتبعه شفابرين وسائر الرؤساء . وخرجت الكتائب بنظام جيد من القلعة . وجموع الناس من الأهالى تحف بالموكب . وبقيت وحدى فى الميدان مع سافيليتش

وكان رائدى ممسكا بعريضته فى يده يتطلع اليها فى حسرة عميقة . وكان المسكين لما رأى العلاقة الودية بينى وبين بوجاتشيف ظن انه مستطيع أن يسترد منه شيئاً من خسائرنا . بيد ان نيته هذه لم يصاحبها التوفيق

وأوشكت أن أوبخه بعنف على براعته غير الموفقة . لولا انى لم أتمالك نفسى من الضحك . فقال لى :

— إضحك ياسيدى إضحك . ولكن عند ما تأتى ساعة إعادة تأثيث بيتك . سترى بنفسك إن كانت هذه الشهية للضحك ستواتيك



وتركته وذهبت جرياً الى بيت القسيس لأرى هناك مارى ايفانوفنا . فخفت زوجة القسيس للقائى وأخبرتنى خبراً أليما . ففى أثناء الليل ظهرت على الفتاة المسكينة أعراض الحمى الشديدة . وأخذت تهذى

maktbtna.com

وأدخلتنيا كولينا الى حجرة مارى . فاقتربت برفق من الفراش . وأدهشنى التغيير الفظيع الذى طرأ على محياها . ولم تعرفنى المريضة . ووقفت جامداً مذهولا أمامها مدة طويلة . لا أسمع شيئا مما كان يقوله لى الأب جراسيم وزوجته . وهو فيما يبدو من قبيل التهدئة والتهوين

وتكالبت على سريرتى أفكار فظيعة قاتمة . لأن موقف يتيمة محزونة وقد تركت وحدها من غير حماية أو جاه تحت رحمة الأوغاد ، كان يبدو لى أليما مثل حالة عجزى التام عن حمايتها . وكان شفابرين على الخصوص يشغل بالى بعد أن أصبح قائد القلعة ، وقد خولت له سلطات الغاصب فى الموقع الذى تعيش فيه تلك الفتاة المسكينة وهى موضع نقمته وتحت رحمته وهو نذل لايعرف الرحمة

مكتبتنا

وماذا كنت حريا أن أصنع ؟ كيف أعاونها وأنجدها وأخلصها ؟

لم يكن أمامى غير وسيلة واحدة . قررت أن أتخذها . وهى أن أرحل بأقصى سرعة الى أورنبورج كى أستحث السلطات العسكرية هناك على استرداد


maktbtna.com

« وأدخلتني أكولينا الى حجرة ماري ، ووقفت جامداً مذهولا أمامها .. »

قلعة بيلوجورسك . وان أسهم فى ذلك إن استطعت

وودعت القسيس وزوجته اكولينا بعد أن أوصيتهما بكل إلحاح خيراً بتلك التى كنت أعتبرها منذ تلك اللحظة زوجتى أمام الله . وتناولت يد الفتاة المسكينة فأمطرتها بقبلاتى ودموعى

وقالت لى زوجة القسيس وهى توصلنى الى الباب :

— صحبتك السلامة يا بطرس اندريتش . وعسى أن نلتقى يوماً ما فى ظروف خير من هذه . لا تنسنا وا كتب الينا كثيراً . فليس للمسكينة مارى ايفانوفنا فيما عداك أنت سند أو معين



وخرجت الى الميدان فوقفت لحظة أمام المشنقة . وحييت قائدى التحية الأخيرة باجلال فائق ثم أخذت سبيلى الى أورنبورج فى صحبة سافيليتش الذى لم يتخل عنى لحظة

ومشيت غارقا فى خواطرى . وإذا بى أسمع فجأة حوافر جواد يركض خلفى . فالتفت برأسى لأرى فارسا من القوزاق يسرع نحونا من القلعة . وفى يده جواد من جياد البشكير . وهو يشير الينا بيده كى ننتظره . فتوقفت فى مكانى وعرفت فيه على الفور صول القوزاق السابق مكسيميتش

ولما أدركنا ترجل عن جواده ووضع فى يدى عنان الجواد البشكيرى الآخر قائلا :

— يا صاحب السعادة . ان أبانا القيصر يهديك هذا الحصان . وعباءة من الفرو خلعة سنية

وكان مربوطا الى سرج الحصان شىء تبينت فيه عباءة ساذجة من فراء الخروف . واستطرد الرسول متردداً

— وأيضا أرسل اليك نصف روبل .. ولكنى أضعته فى الطريق لأنى كنت أجرى كى أدركك . فسامحنى فيه

وانبرى سافيليتش للرد . فنظر الى الصول شذراً وقال :

— أضعته فى الطريق ؟ هيه ؟ وما هذا الذى يرن فى جيبك ؟

وضربه على جيبه . فقال الصول :

— هذا الذى يرن فى جيبى . سامحك الله ياشيخ ! انه قطعة من الحديد . مسمار من مسامير الركاب

فتدخلت بينهما لفض هذا النزاع التافه قائلا :

— مفهوم مفهوم ! إحمل شكرى الى الذى أرسلك . وأما نصف الروبل فاجتهد أن تعثر عليه وأنت عائد . وإن وجدته فهو هدية منى لك تشرب به نخب سلامتى

فقال الصول وهو يستدير بالجواد :

— شكراً جزيلا لك ياصاحب السعادة . أشرب نخب سلامتك وأدعو لك الى الأبد أن يحفظك الله ويرعاك

ثم لكز جواده فأسرع يركض به وقد وضع يده على جيبه . وسرعان ما اختفى عن الأنظار . فارتديت العباءة . وركبت الحصان . وأردفت رائدى العجوز سافيليتش ورائى

وفى بعض الطريق قال لى الشيخ :

— أرأيت يا سيدى ان عريضتى التى قدمتها لهـذا اللص لم تكن عديمة الجدوى ؟ لقد خجل اللص من نفسه . مع أن هذا الحصان البشكيرى الحقير وهذه العباءة الحقيرة التى لا يلبسها إلا الفلاحون لا يساويان نصف ما سرقه هؤلاء الأوغاد منا . ولا يساوى ما تكرمت فمنحته إياه . ولكن شىء خير من لا شىء . وهانحن نذهب راكبين لا راجلين . وعلى رأى المثل خذ من الكلب المسعور ولو قبضة من شعره

maktbtna.com



الفصل التاسع عشر

المؤتمر الحزبى

ولما اقتربنا من أورنبورج ، لمحنا جمهوراً كبيراً من المساجين المحكوم عليهم بالأشغال الشاقة ، برؤوسهم الحليقة ووجوههم المشوهة بكلابات الجلاد . لأن العادة الهمجية كانت جارية بانتزاع خياشيم المحكوم عليهم وقتئذ !

وكانوا يشتغلون فى تحصين الموقع تحت إشراف المحاربين القدماء ذوى العاهات من الحامية . فالبعض يحفرون الخنادق . والبعض يساعدون فى نقل الحجارة الى البنائين الذين يعملون فى ترميم الأسوار

واستوقفنا الديدبانات عند أبواب المدينة ليسألونا عن جواز المرور . فلما علم الجاويش اننا قادمان من قلعة بيلوجورسك . قادنا على الفور الى بيت الجنرال كارلوفيتش وهو كما يذكر القراء زميل أبى القديم

ووجدنا الجنرال فى حديقته يفحص أشجار التفاح التى كانت رياح الخريف قد جردتها من أوراقها . ويقوم بمساعدة بستانى عجوز بلف تلك الأشجار بعناية فائقة فى حصير من القش . ووجهه ينم عن الهدوء التام واعتدال المزاج والصحة !

وأظهر الجنرال سروراً فائقاً بمرآى . وشرع يسألنى عن الحوادث الرهيبة التى شهدتها بعينى . فرويتها له . وكان الشيخ يصغى لما أقول باهتمام بالغ . وإن كان فى الوقت نفسه يقوم بتقليم الأغصان الميتة . فلما فرغت من بيانى قال لى :

ــ يا للمسكين ميرونوف ! انها لخسارة فقد كان ضابطاً مجيداً . ومدام ميرونوف أيضاً كانت سيدة فاضلة طيبة . يتحدث الجميع بتفوقها فى تمليح الكرنب ! وماذا حدث لماشا ابنة القائد ؟

فأجبته انها بقيت فى القلعة فى بيت القسيس . فقال الجنرال :

— آى آى ! هذا سيء . سيء للغاية . من المستحيل تماماً أن يركن المرء الى نظام هؤلاء اللصوص أو شرفهم

فرأيت من واجبي أن ألفت نظره الى ان قلعة بيلوجورسك ليست بعيدة كل البعد عن أورنبورج . وان سعادته عسى ألا يتأخر كثيراً عن إرسال فصيلة من قواته لتخليص الأهالى المساكين من ذلك اللص

وهز الجنرال رأسه فى شك مما أقول وقال :

— سنرى . سنرى . أمامنا متسع من الوقت للكلام فى هذا . وأنا أرجو منك أن تأتى لتناول الشاى معى . وسيكون عندنا هذا المساء مجلس حربى . وسوف يكون فى وسعك أن تدلى أمامه بمعلومات محددة واضحة عن ذلك الوغد بوجاتشيف وعن قوات جيشه . أما الآن فاذهب واسترح



وذهبت الى المسكن الذى عينوه لى . وكان سافيليتش قد سبقنى اليـه . وهناك جلست أنتظر بصبر نافذ الوعد المحدد

maktbtna.com

ويستطيع القارىء أن يتخيل مبلغ لهفتى على حضور ذلك المجلس الحربى الذى سيكون له أثر بالغ جداً فى حياتى كلها . وفى الساعة المحددة كنت فى بيت الجنرال

ووجدت عنده أحد الموظفين المدنيين فى محافظة أورنبورج . وهو مدير الجمارك . فيما أذكر . وهو شيخ قصير القامة بدين أحمر الوجه يرتدى ثوباً من الحرير المموج . وأخذ يسألنى عن مصير إيفـان كوزميتش . ويقاطعنى بأسئلة فرعية وملاحظات طنانة بليغة جوفاء أراد بها أن يظهر لى تضلعه فى الفن العسكرى بالرغم من مهنته المدنية

مكتبتنا

وفى خلال ذلك الحديث كان قد اكتمل شمل سائر المدعوين . فلما أخذوا كلهم أماكنهم وقدم الى كل واحد منهم فنجاناً من الشاى بدأ الجنرال الحديث فشرح بالتفصيل وبالتطويل موضوع الاجتماع ..

— والآن أيها السادة ينبغى أن نقرر كيف يجب أن نتصرف ازاء هؤلاء الثوار . هل نتخذ خطة الهجوم أو خطة الدفاع ؟ إن كل خطة من هاتين لها

مزاياها ولها مساوئها . فالحرب الهجومية قد تكون أكثر أملا فى استئصال شأفة العدو بسرعة . أما الحرب الدفاعية فأكثر استقراراً وأضمن نتيجة وأقل خطورة ومجازفة . وعلى هذا الأساس سنأخذ الأصوات على حسب الترتيب التشريعى . أى نستطلع أولا الأحدث سناً والأصغر رتبة

والتفت القائد نحوى وقال :

— والآن يا حضرة اللازم الثانى . تفضل باعلان رأيك

فنهضت . وبعد أن صورت فى كلمات قلائل شخصية بوجاتشيف وعصابته . أكدت لهم ان الغاصب لاتسمح له حالته بمقاومة أى قوات نظامية . واستقبل الجميع رأيي . ولا سيما المدنيون بامتعاض ظاهر . ولا شك أنهم رأوا فى هذا الرأى طيش الشباب

وارتفعت همهمة ثم سمعت بوضوح أحدهم يقول بصوت خافت :

— يا له من غر

والتفت الجنرال الى جهتى وقال باسماً :

— ياحضرة اللازم الثانى . ان أوائل الأصوات فى المؤتمرات الحربية وهى أصوات صغار الضباط تكون دائما أو فى الغالب فى صف الهجوم . والآن سنستمر فى أخذ الأصوات . فتفضل يا حضرة مستشار البلدية بابداء رأيك

فوقف عجوز قصير القامة وأسرع بتجرع فنجان شايه الثالث الذى مزجه بكمية كبيرة من الروم وقال :

— أعتقد يا صاحب السعادة اننا يجب أن نتخذ الخطة لا هى دفاعية ولا هى هجومية !

فبهت الجنرال وقال :

— وكيف يمكن هذا يا حضرة مستشار البلدية . إن فن التكتيك ليس فيه إلا هاتين الوسيلتين . فإما دفاع وإما هجوم

— يمكن أن نتخذ خطة تجمع بين الخطتين . خطة الثابرة والايقاع بين صفوف الأعداء بالنفوذ والمال

— إن رأيك له وجاهته . ومثل هذه الاجراءات سبق اتباعها فى تاريخ الحروب . ويمكن أن نستفيد من هـذا الرأى . بأن نعلن مثلا عن جائزة

maktbtna.com

سبعين روبلا أو حتى مائة روبل تصرف من بند المصاريف السرية ثمناً لرأس هذا الوغد

وعندئذ قاطعه مدير الجمارك قائلا :

— هذا كلام عظيم ! وأنا مستعد أن أعترف بأنى ثور قرغيزى لا مدير الجمارك إن لم يأتك هؤلاء اللصوص برأس زعيمهم . أو به حياً مغلول اليدين والساقين من خلاف !

فقال الجنرال برزانة :

— هذا رأى سنعيره نصيبه من الاهتمام فى وقته وسنعود لبحثه فيما بعد . ولـكن هذا لايمنع فى الوقت نفسه من اتخاذ إجراءات عسكرية أخرى . فهيا ياحضرات السادة ادلوا بأصواتكم حسب الترتيب المعتاد

وأخذت الأصوات فكانت كلها ضد رأيي . وقال معاونو الجنرال أن القوات الحـكومية الموجودة فى المدينة لايوثق بها تماماً . وان نجاحها غير مضمون . ولهذا فلا بد من الحذر ، وهلم جراً ..

كانوا كلهم متفقين فى الرأى انه من المستحسن البقاء خلف أسوار قوية من الحجر وفى حماية المدافع البعيدة المدى . وان ذلك أفضل من الركون الى مقادير الحرب والقتال وخطوط الميدان فى العراء

maktbtna.com



وبعد أن تم أخذ جميع الأصوات علانية . نفض الجنرال رماد بيبته وألقى الـكلمة التالية :

— ياحضرات السادة . أجد من واجبي أن أعلن لـكم رأيي بكل صراحة . وهو انى متفق تماماً مع وجهة النظر التى أبداها حضرة الملازم الثانى . ذلك ان وجهة نظره السالفة الذكر تستند الى أساس متين من فن التـكتيك الحربى السليم . فذلك الفن يرجح دائماً على وجه التقريب الحركات الهجومية على الحركات الدفاعية ..

مكتبتنا

وتمهل الجنرال برهة لحشا بيبته . وكنت أنا فى تلك اللحظة منتفخ الأوداج من السرور بهذا الاطراء بعد الخذلان والتهكم . وألقيت نظرة شماتة على الموظفين المدنيين الذين راحوا يتهامسون فيما بينهم بصورة تنم عن قلقهم واستيائهم .

ثم استطرد الجنرال بعد أن أطلق من بيته سحابة قوية من الدخان وهو يزفر زفرة واضحة

— ومع هذا يا حضرات السادة . فلا يسعنى أن آخذ على عاتق وحدى مسئولية كبرى مثل هذه المسئولية ..

وانتقل القلق من الموظفين المدنيين الى شخصى .!

— .. فحين يتعلق الأمر بسلامة ولايات عهدت بها الينا مكارم صاحبة الجلالة الامبراطورية القيصرة عاهلتنا المعظمة يجب أن يكون الحرص رائدنا ولا نستبد برأينا الشخصى .. ولهذا السبب أيها السادة أجد نفسى مضطراً أن أنحاز لجانب الأغلبية

وأجال الجنرال العجوز بصره فينا على مهل ثم استطرد :

— وقد اتضح وضوحاً كافيا شافيا ان أغلبيتكم الساحقة رأت الأخذ بخطة الاحتراس . وأن نكتفى بالتحصن داخل مدينتنا فى انتظار الحصار الذى يتهددنا به هــذا اللص . ومتى بدأ الحصار فسنعهد بمهمة دفع هجمات العدو الى قوة مدفعيتنا المتفوقة . وإن لزم الأمر فسنرتب فى حينه عمليات هجوم مضاد بين وقت وآخر ، بنظام محكم على حسب الفن العسكرى السليم . وبعــد مراجعة جميع الظروف

ولما ختم الجنرال كلامه . حل دور الموظفين المدنيين أن يرمقونى ساخرين شامتين . ثم بدأ المؤتمر الحربى يتفرق

ولم أتمالك نفسى من الرثاء لوهن ذلك الجندى الوقور الذى قرر على خلاف اقتناعه الشخصى أن ينحاز الى رأى حفنة من الجهلاء لا معرفة لهم بالحرب ولا خبرة لهم بشئونه

بيد ان الأمر كان خارجا عن إرادتى ولا حيلة لى فيه إلا الاذعان والطاعة

الفصل العشرون

خطاب من الحبيبة

بعد ذلك المؤتمر الحربى ببضعة أيام ، بر بوجاتشيف بوعده ، واقترب بجيشه من أورنبورج . وعرفت مدى قوته عند ما ألقيت نظرة من فوق الأسوار . فبدا لى أن عدد جنوده تضاعف مرات كثيرة منذ الهجوم الأخير الذى شهدته بنفسى . وأصبح له أيضا عدد من المدفعية التى غنمها من القلاع الصغيرة التى تغلب عليها فى زحفه

وعلى ضوء ما تمخض عنه المؤتمر الحربى ، توقعت حصاراً طويلا داخل أسوار أورنبورج . فأوشكت أن أبكى غيظا وقهراً

وليس فى النية أن أصف هنا حصار أورنبورج . فهذا من شأن مؤلفى التاريخ وليس مكانه فى سجل كهذا لحياة شاب من أبناء البيوتات الريفية .

maktbtna.com

ولهذا أوجز القول وأخلص الى ان سوء الادارة وضعف القيادة نجم عنهما خسارة فادحةوعذاب شديد لسكانالمدينة المدنيين الذينعانوا الجوعوالحرمان بشتى أنواعه من غير مبرر

غدت الحياة فى أورنبورج غير محتملة . وفقد الجميع الثقة فى القادة . وباتوا يتوقعون بين لحظة وأخرى ما يتمخض عنه القدر فى قلق وذعر .

وسرعان ما تعود الناس القنابل التى كانت تنهمر على رؤوسهم وبيوتهم . إلىأن صارت هجمات بوجاتشيف نفسها لا تثير اهتماماً كبيراً

وبطبيعة الحال بدأت أسأم هذه الحياة . وصارالوقت يمر فى بطء شديد . ولم أستطع أن أتلقى أى خطاب من بيلوجورسك . لأن جميع السبل كانت مقطوعة . فكان فراقى لمارى يزداد كل يوم وطأة حتى صارغيرمحتمل . ولم تعد

لى تسلية إلا القيام بنزهات عسكرية . . .

وبفضل كرم بوجاتشيف كان عندى حصان قوى الاحتمال كنت أتقاسم معه تعيينى المحدد فى مدة الحصار . وكنت أخرج كل يوم من الأسوار وأتسلى بتبادل النيران مع كشافة بوجاتشيف وطلائعه

وفى مثل هذه الاشتباكات الصغيرة كان التفوق غالباً فى جانب الثوار ، لأنهم يتمتعون بوفرة فى الغذاء ، ولديهم مطايا ممتازة حسنة العلف . أما خيالتنا الهزيلة فلم تكن فى حالة تسمح لها بالصمود لهم

وفى بعض الأحيان كانت قوات مشاتنا الجائعة تشتبك فى المعركة . بيد أن كثافة الثلج على الأرض كانت تمنع هذه القوات من أى عمل جدى ضد خيالة العدو السريعة الحركة . وعبثاً كانت المدفعية تقصف من فوق الأسوار . وإذا خرجت من الأسوار لا تستطيع التقدم كثيراً بسبب هزال الخيول التى تجرها

وهذه هى الخطة الحربية التى كنا نسير عليها . وهذا هو ما يسميه موظفو أورنبورج خطة الحذر وبعد النظر . . . !

maktbtna.com



وذات يوم ، ونحن نطارد أمامنا مجموعة كبيرة نوعاً من الأعداء ، أدركت قوزاقياً تخلف فى المؤخرة ، وأوشكت أن أضربه بسيفى ، عندما خلع قلنسوته وصاح فى صوت أعرفه :

— طاب يومك يا بطرس أندريتش . كيف صحتك ؟

فعرفت فيه صول القوزاق السابق فى قلعة بيلوجورسك . ولا أستطيع أن أصور مبلغ سرورى بملاقاته فقلت له :

— طاب يومك يا مكسيمتش . هل غادرت بيلوجورسك منذ مدة طويلة ؟

— ليس من مدة طويلة يا أبى الصغير بطرس أندريتش

— منذ متى كنت هناك ؟

— لم أحضر إلا أمس . وعندى لك خطاب

فاستولى علىّ الفرح وصحت به :

— وأين هو ؟

فأجابني مكسيمتش وهو يضع يده داخل صدره :

— معى . وقد وعدت بلاشكا أن أجتهد فى توصيله الى يدك

ومدّ إلى يده بورقة مطوية ، ثم أسرع منصرفاً بأقصى سرعة جواده .

وفتحت الخطاب لأقرأ فيه بمنتهى الاضطراب السطور التالية :

« لقد أراد الله أن يحرمنى مرة واحدة وفجأة من أبى وأمى . ولم يعد لى على وجه الأرض أهل ولا حماة يحموننى . وإنى ألتجيء اليك لأنى أعلم أنك كنت دائماً تريد بى الخير وأنك مستعد على الدوام لمساعدة المعذبين . وإنى أدعو الله أن يكتب لهذه الرسالة أن تصل الى يدك . وقد وعد مكسيمتش أن يوصلها اليك . وكانت بلاشكا سمعت من مكسيميتش مراراً أنه يراك كثيراً من بعيد . وأنك لا ترحم نفسك فى تلك المناوشات ولا تفكر فى الذين يدعون الله لك ليل نهار ودموعهم تنهمر من مآقيهم

« قضيت مدة طويلة وأنا مريضة . ولما شفيت أخيراً أقدم شفابرين الذى يتولى القيادة هنا مكان المرحوم والذى على إكراه جراسيم على تسليمى إياه ، بعد أن خوفه بيوجاتشيف . وأنا الآن أعيش تحت حراسته فى دارنا . ويريد شفابرين أن يكرهنى على الزواج منه . ويقول إنه أنقذ حياتى حينما أحجم عن كشف أكذوبة أكولينا حين زعمت أنى قريبتها لتنقذنى من قطاع الطرق الغاصبين

« ولكنى أخبرك أنى أفضل الموت على أن أصبح زوجة لرجل مثل شفابرين . وهو الآن يعاملنى بقسوة شديدة . ويهددنى إذا لم أغير رأيى ولم أوافق على تلبية طلبه ، أن يقودنى بنفسه الى معسكر قطاع الطرق حيث ألقى مصير أليصابات خارلوف التى كانت ابنة أحد قواد القلاع وقتلها بوجاتشيف ومثل جنوده بها . وقد رجوت شفابرين أن يمنحنى فرصة للتفكير . فأعطانى مهلة ثلاثة أيام . وإذا لم أصبح زوجته بعد ثلاثة أيام فلن أجد منه هوادة

« وأنت يا بطرس أندريتش الحامى الوحيد لى فدافع عنى أنا الفتاة المسكينة . وتوسل الى الجنرال والى جميع رؤسائك أن يبعثوا الينا بحامية

قوية على الفور . واحضر معها إن استطعت

« ودمت لليتيمة الخاضعة مارى ميرونوف »



وكاد هذا الخطاب أن يورثنى الجنون . فاندفعت نحو المدينة وأنا ألكز بغير رحمة بطن جوادى المسكين . وكنت أثناء ذلك أدير فى رأسى ألف مشروع كى أخلص الفتاة البائسة . بيد أنى لم أستقر فى مشروع منها على رأى . ولما وصلت المدينة ، ذهبت على الفور لمقابلة الجنرال . واندفعت نحو حجرته . فوجدته يتمشى فيها جيئة وذهاباً وهو يدخن بيبته . فلما رآنى وقف فى مكانه لأن منظرى فيما يظهر لفت نظره . وسألنى فى شىء من القلق عن سبب قدومى المفاجىء عليه بهذه الصورة . فقلت له :

— يا صاحب السعادة . إنى حضرت اليك كما ألجأ الى والدى . فلا تخذلنى ولا ترفض رجائى . لأن الأمر يتعلق بسعادتى طول حياتى

فسألنى الجنرال مبهوتاً :

— ما المسألة ؟ وماذا أستطيع لك ؟ تكلم

— يا صاحب السعادة . أعطنى كتيبة من الجنود وخمسين قوزاقياً

— أعطيهم إياك ؟ ماذا تعنى؟ ولماذا تريدهم ؟

— أذهب بهم فأجتاح قلعة بيلوجورسك

فحدق فىّ الجنرال ملياً وهو يظن بلا شك أنى فقدت عقلى . والواقع أنه لم يبعد كثيراً عن حقيقة حالى . وقال لى :

— ماذا تقول ؟ تجتاح قلعة بيلوجورسك ؟

فقلت له بكل حماسة :

— إنى أضمن لك النجاح . واعتبرنى مسئولا عنه . اسمح لى فقط بالقيام بتلك المهمة وعلىّ الباقى :

فهز الرجل رأسه وقال :

— كلا أيها الشاب . فالقلعة على مسافة بعيدة . وسيكون فى استطاعة العدو فى تلك الحالة أن يقطع بسهولة جميع الاتصالات بينك وبين النقطة الاستراتيجية الرئيسية مما يتيح له الانتصار عليك انتصاراً حاسماً . . .

وشرع يلقى علىّ محاضرة فى الفن العسكرى . فأفزعنى ذلك وأسرعت أقاطعه قائلا :

— إن ابنة الكابتن ميرونوف بعثت إلىّ خطاباً تطلب منى المساعدة السريعة لأن شفابرين يريد أن يرغمها على الزواج منه

فرفع الجنرال حاجبيه وقال :

— أوه ! حقاً ! إن شفابرين هذا وغد كبير ! وإن وقع يوماً فى يدى فسأقدمه لمجلس عسكرى فى مدى أربع وعشرين ساعة . ونضربه بالرصاص على عتبة القلعة . ولكن إلى أن يحين ذلك الوقت يجب أن نتذرع بالصبر

فأخرجنى كلامه هذا عن طورى وصحت :

— نتذرع بالصبر؟ ولكن إلى أن يحين هذا الوقت يكون قد تزوجها غصباً

فقال القائد بكل هدوء :

— فليتزوجها ! فليس هذا — فيما أعتقد — بلاء كبيراً بالنسبة لها . فمن الخير لها فى الوقت الحاضر أن تتزوج شفابرين الذى يستطيع حمايتها حالياً من تقلبات الحرب وعدوان قطاع الطرق . وبعد أن نعدمه إن شاء الله ، سيمكننا بعونه تعالى العثور لها على خطيب مناسب . فان الأرامل الجميلات الصغيرات السن لا تطول عادة مدة عزوبتهن . وتجربتى الخاصة تدلنى على أن الأرملة الجميلة الشابة تجد زوجاً أسهل بكثير مما تجده الفتاة غير المجربة التى لا تعرف كيف تقتنص الرجال

فقلت بغضب وغيظ :

— إنى أفضل الموت على أن أتنازل عنها لشفابرين

فقال العجوز الماكر :

— آه ! فهمت الآن ما وراء حماستك ! لعلك مولع بماری إيفانوفنا . هذه يا صاحبى مسألة أخرى . يا للفتى المسكين ! ومع تقديرى لدوافعك الخطيرة إلا أنه لا يسعنى للأسف أن أزودك بكتيبة وخمسين قوزاقياً . فهذه الحملة مناقضة للمعقول وللفن العسكرى . ولا يمكننى أن أتحمل مسئوليتها

فطأطأت رأسى وقد ركبنى اليأس . وفجأة خطر لى خاطر ، سيعرف القراء فحوى الخاطر فى الفصل التالى

maktbtna.com

الفصل الحادى والعشرون

تحت جنح الظلام

تركت الجنرال وأسرعت بالعودة الى مسكنى . وهنـاك تلقانى سافيلتش بموشحاته المعتادة !

— أى لذة تجدها يا مولاى فى محاربة هؤلاء اللصوص السكارى ؟ هل لهذا رباك أبوك ؟ إن الظروف ليست دائماً على ما يرام . وستقتل نفسك فى هذه المعارك من غير طائل . وليتك كنت مثلا تحارب قوماً لهم قيمة كالأتراك أو السويديين ! فانه من العار أن يقال إنك تحارب هؤلاء حتى ولو خرجت منتصراً

وقاطعته قائلا :

— ما هو رصيدى بأكمله من النقود ؟

فقال لى فى سرور ظاهر :

— لم تزل عندك كفايتك والحمد لله . فبالرغم من تفتيش هؤلاء الأسافل عن النقود فى كل مكان لم يستطيعوا أن يصلوا إلى مخبئها

قال هذا ثم أخرج من جيبه كيساً طويلا من الصوف المحبوك مملوءاً بتمامه من النقود الفضية . فقلت له :

— إذن يا سافيليتش أعطنى نصف هذا الذى معك . واحتفظ لنفسك بالباقى . فانى متوجه إلى قلعة بيلوجورسك

فقال العجوز بصوت مرتعد :

— ماذا تقول يا أبى بطرس اندريتش ؟ ألا تخاف الله كيف تريد أن تسافر الآن وجميع الطرق مقطوعة أو مهددة من اللصوص والثوار ؟ إتق

maktbtna.com

الله فى والديك على الأقل إن لم تتق الله فى نفسك . وأين تريد أن تذهب ؟ ولماذا ؟ انتظر قليلا . فان جيوش القيصرة لا تلبث أن تحضر وتبدد شمل هؤلاء اللصوص . وعندئذ لك أن تذهب حيث شئت

بيد أن قرارى كان راسخاً . فقلت للشيخ :

— فات أوان التفكير والتردد . ولابد لى من السفر فوراً . لامناص لى من هذا فلا تحزن يا سافيليتش . ان رحمة الله واسعة . وعسى أن نلتقى يوماً ما ولا تهلكنا هذه الحرب . وإنى أوصيك ألا تتحرج من الانفاق على نفسك من نقودى . ولا تكن شحيحاً فى النفقة . بل إشتر كل ما يلزمك . ولا يمنعك من ذلك ارتفاع الأسعار بسبب الحصار . إشتر ما يلزمك ولو بثلاثة أضعاف ثمنه الحقيق . فاني قد وهبتك هـذا المال ملكا خالصاً لك إن لم أعد بعد ثلاثة أيام

فقاطعنى سافيلتش قائلا :

— ما هذا الذى تقول يا مولاى ؟ أتظننى سأتركك تسافر وحدك ؟

— أرجو يا سافيليتش ألا تتعب نفسك . . .

— لا تفكر فى مجرد إمكان إقناعى بالبقاء وأنت مسافر ! فما دمت قد قررت السفر فسأذهب معك ولو سائراً على قدمى . لن أتخلى عنك ! كلام جميل هذا ! أن أبقى هنا خلف أسوار من الحجر تحمينى وأنت يعلم الله وحده ماذا يكون من أمرك فى الفضـاء الواسع ! أظننتنى فقدت صوابى حتى أقبل هذا ؟ افعل كل ما يبدو لك يا مولاى . ولـكن اعلم أنى لن أفارقك لحظة

وكنت أعلم أنه لا فائدة من المناقشة مع سافيلتش فى هذا الموضوع . فسمحت له أن يتأهب للسفر . وبعد نصف ساعة كنت فوق صهوة جوادى. وكان سافيليتش فوق فرس هزيلة عرجاء حمراء تنازل له عنها أحد السكان بغير مقابل لأنه لا يملك ما يطعمها إياه

وبلغنا أبواب المدينة . وكان الحراس يعرفوننا فتركونا نمر . فخرجنا من أورنبورج الى مصيرنا المجهول ، وكان الليـل قد بدأ يخيم . والطريق الذى لابد لى من سلوكه يمر أمام قرية برد التى بها مركز قيادة بوجاتشيف

وكان هذا الطريق مطموس المعالم من الثلوج المتراكمة . بيـد أن آثار حوافر الجياد تهدينا الى الطريق بصورة معقولة . فأطلقت لجوادى العنان .

ولقى سافيليتش عناء فى اللحاق بى أو متابعتى . وكان يصرخ فى كل لحظة

— لاتسرع هكذا يا مولاى بحق السماء ! . ليس بهـذه السرعة ! . فان فرسى الملعونة لا تستطيع اللحاق بشيطانك هذا ذى القوائم الطويلة . فلماذا تسرع على هذا النحو ؟ هل نحن ذاهبان الى وليمة ؟ إننا فى الغالب ذاهبان الى مصيبة ! يا بطرس اندريتش ! . أسألك اللهم الرحمة . ! فان ابن سيدى هذا سيهلك نفسه بلا طائل

وبعد قليل بدت لنا النيران الموقدة المتناثرة فى قرية برد . واقتربنا أيضاً من الخنادق العميقة التى تعتبر تحصينات طبيعية لتلك القرية . وكان سافيليتش لا يكف عن ولولته . مع أنه لم يكن متخلفاً عنى

وكنت أرجو أن أمر تحت جنح الظلام بأمان أمام مواقع العدو . وإذا بى ألمح فجأة فى الظلام خمسة من الفلاحين مسلحين بالنبابيت . وهؤلاء كانوا حرس الطليعة فى معسكر بوجاتشيف وصاحوا بنا

— من هناك ؟

ولما كنت أجهل كلمة السر. فقد فكرت أن أمر من أمامهم من غير رد ، بيد أنهم أحاطوا بى على الفور . وقبض أحدهم على عنان جوادى . فجردت سيفى وضربت ذلك الفلاح على أم رأسه . فلم تنقذ حياته إلا ضخامة قلنسوته وترنح وترك عنان الجواد . وخاف الآخرون وتراجعوا . فانتهزت هذه الفرصة وأعملت المهماز فى بطن جوادى فانطلق بى مسرعاً

وكانت ظلمة الليل الحالكة حرية أن تمهد لى الافلات من ذلك الكمين ، لولا أنى نظرت ورائى فوجدت أن سافيليتش لم يعد معى . لأن العجوز المسكين لم يستطع التخلص من أولئك اللصوص وهو على فرسه العرجاء

وماذا كان أمامى أن أصنع فى هذه الحالة ؟ ترددت لحظات إلى أن تأكدت أنهم أخذوه أسيراً . فعدت أدراجى لأخلصه من يدهم

ولما اقتربت من الخندق سمعت عن بعد صراخاً مختلطاً وصوت شيخى سافيليتش واضحاً . ولم ألبث أن وجدت نفسى بين الفلاحين الذين هاجمونى منذ قليل وسافيليتش فى وسطهم

وكانوا قد أنزلوا المسكين عن دابتـه وتأهبوا لتقييد يديه ورجليه . فلما رأونى فرحوا فرحاً شديداً وهجموا علىّ وهم يصيحون صيحات عالية . فلم

maktbtna.com
مكتبتنا

ألبث أن وجدت نفسى مترجلا عن جوادى . وقال لى أحدهم ـ هو كبيرهم ولا شك ـ إنهم سوف يقودوننى الى حضرة القيصر

— وسيقرر أبونا القيصر هل نشنقكما فى هذه الساعة . أو أن الأوفق أن ننتظر حتى يطلع النهار

فلم أظهر أدنى مقاومة . وحذا سافيليتش حذوى . وأخذناهؤلاء الحراس فى موكب حافل من مواكب النصر الى داخل القرية

واجتزنا فى طريقنا الخندق العميق . فوجدنا جميع بيوت الفلاحين مضاءة وسمعنا فى كل مكان صيحات وضوضاء صاخبة . وقابلت فى الطريق الرئيسى للقرية جمهوراً كبيراً من الخلق . بيد أن أحداً منهم لم يعرنا التفاتاً . ولم يعرفوا أن الذى يمر بهم ضابط من حامية أورنبورج

وقادونا الى بيت من بيوت الفلاحين يقع عند ملتقى شارعين . وبالقرب من بابه بضعة براميل من النبيذ ومدفعان . وقال أحد آسرينا

— ها هو قصر مولانا القيصر . سنخبره بوجودكما

ودخل الرجل البيت . فألقيت نظرة على سافيليتش ولم أستطع مغالبة الابتسام لأن العجوز المسكين كان مشغولا برسم علامة الصليب بسرعة تدل على الكرب ، وبتلاوة الأدعية

maktbtna.com

وطال انتظارنا . وأخيراً عاد الفلاح وقال لى :

— تعال . فان والدنا القيصر أمر باستدعاء الضابط

فدخلت البيت . أو القصر كما يسمونه . فوجدته مضاء بشمعتين من الدهن والجدران مكسوة بورق مذهب . وفيما عدا ذلك كان الأثاث والمقاعد والمائدة والطست والابريق والمنشفة المعلقة على المسمار ... فكلها مماثلة لما يوجد فى بيت أى فلاح فى القرية

وكان بوجاتشيف جالساً تحت أيقونة مقدسة فى قفطان أحمر اللون وعلى رأسه قلنسوة عالية . ويده فوق فخذه . ومن حوله جلس رؤساء عصابته وعلى وجوههم آيات متكلفة من الخضوع والاحترام

مكتبتنا

ولا شك أن نبأ وصول ضابط من حامية أورنبورج أثار لديهم حب الاستطلاع . فاستعدوا لاستقبالى فى مظهر يليق بمجلس القيصر المزعوم

الفصل الثانى والعشرون

مع الثائر

عرفنى بوجاتشيف من النظرة الأولى . فاختفت من وجهه فجأة امارات الجد المصطنع وهتف بى فى فرح ظاهر :

— أهذا أنت يا صاحب السعادة ؟ كيف حالك ؟ ولماذا أرسلك الله الى هذه الجهة ؟

فأجبته اننى كنت مسافراً لقضاء بعض حاجاتى الشخصية ، وان رجال جيشه منعونى من المرور وألقوا القبض علىّ . فسألنى :

— وما هذه المسألة التي أخرجتك فى هذه الظروف العصيبة ؟

فلم أدر بماذا أجيبه ، فظن بوجاتشيف اننى لا أريد أن أفصح عن مهمتى أمام شهود . فأشار الى جلسائه أن يخرجوا . فأطاعوه جميعاً ماعدا اثنين منهم لم يتحركا من موضعهما . وقال بوجاتشيف :

— تكلم أمامهما بما يحلو لك . ولا تخش منهما شيئاً

فنظرت من طرف عينى الى هذين الشخصين . فوجدت أحدهما شيخاً مسناً قصير القامة محنى الظهر ضئيلا . له لحية هزيلة بيضاء . وليس له ما يميزه سوى وسام أزرق اللون عريض يرتديه فوق قفطانه المصنوع من الصوف الرمادى الخشن . أما الشخص الآخر فلن أنساه ما حييت . كان طويل القامة . قوى البنية . يبدو فى نحو الخامسة والأربعين من عمره وله لحية كثة حمراء اللون. وله عينان رماديتان ثاقبتان . وأنف بلا خياشيم متهتك من أثر كلابات الحديد المحمى . وعلى جبينه ووجنتيه من آثار ذلك الحديد ما أضفى على وجهه الضخم المغطى بآثار الجدرى مسحة غريبة لا سبيل الى وصفها

maktbtna.com

وكان هذا الشخص يرتدى قميصاً أحمر اللون . وثوباً مما يرتديه القرنميز، ومن تحته سراويل قوقازية واسعة

وكان الشخص الأول كما علمت فيما بعد أمباشى هارب من العسكر ، اسمه بيلوبورودوف . اما الآخر فاسمه سوكولوف . وهو مجرم سابق هارب من مناجم سيبيريا . حكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة وهى ثالث مرة يهرب فيها من هناك

وبالرغم من ان حالتى العاطفية كانت تستولى على مشاعرى كلها ولا تترك فضلة للتفكير فى شيء آخر . إلا أن هذه المجموعة التى ألقانى القدر وسطها بصورة غير منتظرة تركت فى نفسى أثراً عميقاً فظللت مذهولا مأخوذاً . غير أن بوجاتشيف نبهنى بسرعة من ذهولى بأسئلته :

— تكلم . ما هى هذه المسائل التى حملتك على مغادرة أورنبورج ؟

خطرت لى على الفور فكرة غريبة . خطر لى ان العناية الإلهية قادتنى مرة ثانية الى حيث يوجد بوجاتشيف ، لأنها تريد أن تهيىء لى بذلك الفرصة كى أصل الى هدفى . فقررت على الفور أن أنتهز هذه الفرصة

ومن غير تفكير طويل فى القرار الذى اتخذته فجأة ، أجبت بوجاتشيف قائلا :

maktbtna.com

— كنت ذاهباً الى قلعة بيلوجورسك ، كى أخلص فتاة يتيمة من الظلم الواقع عليها هناك

فاتقدت عينا بوجاتشيف وصاح :

— ومن من رجالى يمكن أن يتجاسر على إلحاق الأذى بفتاة يتيمة ؟ قسما بعزتى ان يفلت هذا الشخص من عقابى ولو طاولت قامته السماء ! تكلم وقل من هو هذا الأثيم ؟

فأجبته وأنا أكتم تهللى :

مكتبتنا

— إنه شفابرين . إنه وضع يده على تلك الفتاة الصغيرة نفسها التى رأيتها أنت عند زوجة القسيس ويريد أن يرغمها على أن تذعن لرغبته وتتزوجه . وفى سبيل ذلك حبسها وسامها ألوان العذاب

فصاح بوجاتشيف صيحة وحشية :

— سألقن شفابرين هذا درساً لا ينساه ، سأعلمه كيف تكون عاقبة من

يتصرف على هواه فى دولتى ويستبد برعاياى .. سأشنقه

وعندئذ قاطعه سوكولوف العملاق المشوه قائلا بصوت ناعم يخفى الكثير من الدهاء :

— أستأذنك يا مولاى القيصر أن أقول لكم . ان جلالتك تسرعت جداً باعطائك شفابرين قيادة القلعة من غير تثبت . وأرى جلالتك الآن تتسرع بالمثل فى شنقه من غير تثبت . انك حين عينته قائداً على القلعة آذيت شعور القوقازيين . لأنه من الأشراف وليس واحداً منهم . فلاتسرع الآن الى جرح شعور الأشراف بقتل شفابرين لأول تهمة ..

فقال الشيخ القصير ذو الوسام الأزرق :

— ليست المسألة مجاملة ولا رحمة . إنما أنا لا أرى بأسا أن نشنق شفابرين هذا . فليس لذلك أهمية ولكن لن يكون هناك بأس من سؤال السيد الضابط. لماذا تنازل بالقدوم لزيارتنا ؟ فان لم يكن يعترف بك قيصراً شرعيا . فليس له الحق أن يطلب اليك إجراء العدالة . وإن كان يعترف بك قيصراً شرعيا . فلماذا يبقى الى هذه اللحظة فى أورنبورج بين صفوف أعدائك ؟

وتمهل الشيخ الخبيث لحظة ثم قال بهدوئه القاتل :

maktbtna.com

— ألا يرى مولانا القيصر أن يساق السيد الضابط الى غرفة التعذيب ، وأن نوقد له ناراً صغيرة ؟ لأنه يبدو لى ان سعادته قد بعثه الينا السادة الجنرالات الفاتحون من حصون أورنبورج

وبدا لى منطق هذا الشيطان العجوز مقنعا ـ حتى لى شخصيا ـ فسرت فى جسمى رعدة لم أستطع منعها . رعدة لا إرادية . عند ماتذكرت انى وقعت بين أيدى جماعة من السفاحين وقطاع الطرق المجرمين الهاربين من السجون. ولاحظ بوجاتشيف اضطرابى فغمز لى بعينه وقال :

— إيه . هيه يا صاحب السعادة ! يبدو لى ان ماريشالى على حق . ما رأيك أنت ؟

مكتبتنا

فأعادت دعابة بوجاتشيف الى نفسى هدوءها . وأجبته بهدوء انى تحت رحمته وبين يديه . يستطيع أن يفعل بى ما يحلو له . فقال :

— جميل . قل لى الآن ما هى حالة مدينتكم ؟

فأجبته على الفور :

— لله الحمد ، كل شيء فيها على مايرام

فهز بوجاتشيف رأسه وقال :

— على ما يرام ؟! والشعب هناك يموت من الجوع ؟

وكان بوجاتشيف يقول الحقيقة . غير ان الواجب الذى كان يفرضه على يمين الولاء للقيصرة كضابط فى الجيش ، جعلنى أؤكد له ان ذلك القول ليس إلا اشاعة لا أساس لها من الصحة . وان مدينة أورنبورج وحصونها بها من الكفاية الأقوات والذخائر . فصاح العجوز القصير الذى يدعوه بوجاتشيف الفيلد ماريشال

— ها أنت ترى يامولانا القيصر انه يخدعك ويكذب عليك من غير حياء. فجميع الهاربين من المدينة يؤكدون بالاجماع ان المجاعة والطاعون يجتاحان أورنبورج . وان الناس فيها يأكلون القاذورات . بل ويعتبرون الحصول عليها نعمة جزيلة . وها هو صاحب السعادة يؤكد لنا ان كل شيء متوفر . فآن كنت تريد يا مولانا أن نشنق شفابرين . لا بأس . أشنقه ولكن أشنق معه على خشبة واحدة هذا الشاب !

ويبدو ان عبارات هذا العجوز الخبيث اللعين زعزعت رأى بوجاتشيف ولحسن الحظ تدخل سوكولوف العملاق معارضاً زميله قائلا :

— صه ! انك لا تفكر ياشيخ النحس إلا فى الشنق والقتل ! إن رجلك فى القبر ، ولهذا تفرح حين ترى سواك يموت قبلك ! ألا يكفيك ما يثقل ذمتك يوم القيامة من دماء بريئة ؟

فأجابه الآخر ثائراً :

— وأنت ؟ هل أنت قديس ؟ من أين جاءتك هذه الرأفة ؟

— أنا لا أنكر انى مثلك خاطيء ومثقل بالخطايا

ثم ضم قبضته الضخمة وكشف عن ذراعه المغطى بالشعر وقال :

— وهذه اليد كم سفكت من دماء زكية . ولكنى ياصاحبي قتلت عدوى ولم أقتل الرجل الذى آوانى فى داره . قتلت فى الطريق العام وفى الغابة المظلمة . ولم أقتل انساناً فى بيته وتحت سقفه بفأس يستعملها لتكسير الأخشاب كى يوقد لى ناراً أتدفأ بها

فأشاح العجوز برأسه وغمغم قائلا :

— يالك من مقطوع الأنف منزوع الخياشيم !

فانفجر الآخر صارخاً :

— ماهذا الذى تدمدم به أيها البوم العجوز ؟ سأنزع خياشيمك بنفسى ، انتظر قليلا وسوف يحين أوانك أيضاً ، أنا واثق انك ستذوق طعم الحديد المحمى فى يوم قريب . ولكن احذر لنفسك حتى لا أنتف لحيتك الخبيثة قبل ذلك الموعد

وعندئذ تنحنح بوجاتشيف وقال بوقار شديد :

— أرجو منكما يا حضرتى الماريشالين الموقرين أن تضعا حداً لخلافاتكما ، كى نستطيع تصريف شئون الدولة . وأنا لا يهمنى أن يأكل كلاب اورنبورج بعضهم بعضاً ولكن يهمنى جداً ألا يعض كلب من كلابنا أخاه !

فلم يجب الماريشلان بشىء . وتبادلا نظرات سوداء صامتة . ووجدت من واجبى الضرورى أن أغير موضوع الحديث . لأن الموضوع يوشك أن ينتهى نهاية لا تسرنى . فنظرت نحو بوجاتشيف وقلت له باسماً جهد استطاعتى :

— على فكرة ! نسيت أن أشكرك على هدية الجواد والعباءة . فلولاك ولولا هديتك لما استطعت أن أصل الى المدينة بل كنت أموت من شدة البرد أثناء السفر

ونجحت حيلتى ـ لأنى رأيت أسارير بوجاتشيف تنفرج ـ وقال لى وهو يغمز لى بعينه على عادته :

— إن جمال الدين يتم بحسن الوفاء ، والآن اسرد على مسامعى ماذا تريد أن تصنع كى تخلص تلك الفتاة ؟ وماشأنك واهتمامك بتعذيب شفابرين لها؟

فاحمر وجهى ولم أجب . فاستطرد بوجاتشيف :

— ألا يكون قلبك الصغير قد أصابه سهم صغير ؟

فأجبته وأنا مسرور لاتجاه روحه الى الدعابة :

— إنها خطيبتى ...

ولم أجد لزوماً للادعاء بشىء غير الحقيقة . فصاح بوجاتشيف :

— خطيبتك ! ولماذا لم تقل هذا من قبل ؟ أقسم بأن نقوم بتزويجكما وتشريف حفل زفافكما !

makthtna.com
مكتبتنا

ثم التفت الى الشيخ القصير الخبيث قائلا :

— اسمع يا فيلد ماريشال . نحن صديقان قديمان أنا وصاحب السعادة . فلنتناول العشاء معاً . وغداً ننظر فيما يمكن أن نصنعه لقضاء مسألته . فان النهار كما يقولون له عينان مبصرتان

وكنت حرياً أن أرفض عن طيب خاطر شرف تناول العشاء على مائدة اللصوص . ولـكنى لم أستطع أن أجد مسوغاً للرفض

ودخلت فتاتان قوقازيتان جميلتان هما فى الواقع ابنتا صاحب هذا البيت الذى اغتصبه بوجاتشيف وجعله قصره كما يسميه ومركز قيادته . وبسطت الفتاتان مفرشاً أبيض على المائدة . ثم أحضرتا خبزاً ساخناً . وحساء بها سمك مسلوق. وجراراً مليئة بالنبيذ والجعة . وأحضرتا بعد ذلك أطباق الشواء ووضعتا أمام بوجاتشيف خنزيراً صغيراً بأكمله مشوياً باتقان . يأكل منه ويعطى من يشاء

وهكذا وجدت نفسى للمرة الثانية ضيفا على مائدة بوجاتشيف وأصحابه المجرمين الأشرار ، بسبب ظروف خارجة عن إرادتى

maktbtna.com





الفصل الثالث والعشرون

آمال فى الطريق

استمرت الوليمة الماجنة الصاخبة التى اضطررت اضطراراً الى حضورها حتى ساعة متأخرة من الليل وأخيراً تغلبت سورة الخمر على الشاربين فنام بوجاتشيف وهو جالس فى مكانه . ونهض رفاقه وأومأوا إلىّ بالاشارة أن أتركه فخرجت معهم . وأمر أحدهم الحارس فقادنى الى حيث وجدت سافيليتش فقضيت الليل معه بعد أن أغلقوا علينا الباب بالمفتاح

وكان سافيليتش فى غاية الدهشة لما يراه حوله حتى انه لم يوجه على عادته أى سؤال إلىّ بل نام فى الظلام وسمعته يئن طويلا ويشكو

وأخيراً بدأ سافيليتش يغط فى نومه أما أنا فأطلقت العنان لأفكارى التى لم تترك لى فرصة كى أغمض عينى لحظة واحدة طول الليل

وفى اليوم التالى صباحاً حضر مندوب بوجاتشيف لينادينى . فتوجهت اليه . ووجدت أمام بابه عربة كبيرة زحافة وقد شدت اليها ثلاثة جياد تترية . وجماهير الناس تزحم الشارع

والتقيت ببوجاتشيف فى بهو الدار فوجدته مرتدياً ثياب السفر وعليه عباءة قرغيزية ، وقلنسوة قرغيزية كذلك . وندماؤه فى الليلة الماضية يحيطون به وقد ظهرت عليهم أمام الناس مظاهر الخضوع الكلى التى تناقض تمام المناقضة ما شهدته منهم فى الليلة الماضية

وحيانى بوجاتشيف تحية الصباح بسرور وابتهاج ثم أمرنى أن أجلس بجواره فى المحفة . واحتللنا مكانينا ثم قال بوجاتشيف للسائق التترى القوى البنية الذى كان يقود المحفة وهو واقف على قدميه :

maktbtna.com
مكتبتنا

— الى قلعة بيلوجورسك !
ودق قلبي دقاً عنيفاً . وانطلقت الجياد والأجراس الصغيرة ترن فى أعناقها ، فطارت الزحافة طيراناً فوق الثلج
وفجأة سمعت صوتاً أعرفه جيداً يصرخ :
— قف ! قف !
ورأيت سافيليتش يجرى نحونا . فأمر بوجاتشيف الحوذى بالوقوف .
وصاح خادمى متضرعاً إلىّ :
— يا أبى الصغير بطرس اندريتش . لاتتخلى عنى فى أيام شيخوختى وتتركنى وسط هؤلاء اللصوص ..
فقال بوجاتشيف باسماً :
— لقد شاء الله أن نلتقى مرة أخرى أيتها البومة العجوز ! هيا اجلس فى المقعد الأمامى
فأجابه سافيليتش وهو يحتل ذلك المكان :
— شكراً لك أيها القيصر . شكراً لك يا أبى العزيز . فليمنحك الله عمراً مقداره مائة سنة لأنك طمأنت قلب شيخ مسكين ! سأدعو لك الله طول حياتى. ولن أذكر على لسانى مرة أخرى أى عباءة من فراء الأرانب
وكان ذكر هذه العباءة كافياً لاثارة غضب بوجاتشيف . لولا انه لحسن الحظ لم يسمع هذه الكلمة النابية عن الذوق أو تظاهر بأنه لم يسمعها
واستأنفت الجياد ركضها . ووقف الناس فى الشارع وكل واحد منهم يحيينا بالانحناء الى الأرض . وبوجاتشيف يوزع عليهم الايماءات من رأسه يميناً ويساراً وفى لحظة واحدة كنا قد خرجنا من القرية وشرعنا نسلك طريقاً واضح المعالم ممهداً تمام التمهيد
وفى وسع القارىء أن يتخيل ما كنت أشعر به . فبعد ساعات قلائل سيكون من حظى أن أرى مرة أخرى تلك التى كنت قد حسبتها ضاعت من يدى وخرجت من حياتى الى الأبد
وأخذت أتخيل لحظة اجتماعنا . بيد انى كنت أفكر أيضاً فى الرجل الذى شاءت المقادير أن تكون مقاليد حياتى بين يديه . وكيف ان ظروفاً غريبة جداً تربطنى به بصورة غامضة

maktbtna.com
مكتبتنا

وتذكرت أيضا نوبات القسوة الفجائية والعـادات الدموية التى لا تؤمن بادرتها من الرجل الذى نصب من نفسه حاميا لخطيبتى . فهذا الرجل بوجاتشيف لم يكن يعلم انهـا ابنة الـكابتن ميرونوف . ومن المنتظر إذا اشتد الضغط على شفابرين أن يكشف له تلك الحقيقة . بل ان بوجاتشيف من الممكن جداً أن يعلم الحقيقة من مصادر أخرى . فماذا يكون عندئذ من أمر مارى ؟

وعند تلك الخاطرة سرت رعدة مفاجئة فى جسدى وقف شعر رأسى

وفيما أنا على تلك الحال إذا بوجاتشيف فجأة يقطع حبل خواطرى قائلا :

— ما الذى يشغل أفكار سعادتكم ؟

— وكيف لا تريدنى أن أفكر وأقلق ؟ فأنا كما تعلم ضابط ومن سلالة نبيلة . وبالأمس فقط كنت أحاربك . والآن أرانى مسافراً معك . فى عربة واحدة . وكل حظى من السعادة فى الحياة مرهون بارادتك

فقال بوجاتشيف :

— ماذا ؟ أخائف أنت ؟..

— ليس منك . فانك سبق أن وهبتنى نعمة الحياة وعفوت عن رأسى . فلا عجب أن أطمع منك لا فى مجرد المجاملة والاغضاء ، بل فى المساعدة أيضا

— أنت فى هذا محق . محق تماما . فقد رأيت بالأمس بنفسك كيف ان الماريشالين كانا يتربصان بك فى تنمر . واليوم فقط أراد العجوز القصير أن يدخل فى رأسى بكل وسيلة انك جاسوس وانه يجب أن أستخدم التعذيب كى تعترف بذلك ثم أشنقك . ولـكنى لم أوافقه ..

وخفض بوجاتشيف صوته جداً حتى لا يسمعه سـافيليتش والحوذى واستطرد :

— لم أوافقه لأنى تذكرت كأس النبيذ الذى سقيتنيه وعباءة الفراء التى أعطيتنيها . وها أنت ترى انى لست سفاك دماء كما يزعم أصحابك

ولما تذكرت أخذه قلعة بيلوجورسك عنوة رأيت من الحـكمة ألا أعارضه فى مزاعمه . فلذت بالصمت ولم أجب . وساد الصمت لحظة الى أن سألنى :

— وماذا يقولون عنى فى أورنبورج ؟

maktbtna.com

— يقولون انك لست سهل المنال . وهذا صحيح باجماع الآراء . لأنك كبدتنا مشقات كبيرة

فأشرق وجه الثائر وظهر عليه الارتياح والاغتباط وقال مزهواً :

— نعم . فأنا محارب عظيم . هل يعرف قوادكم فى أورنبورج ما حدث فى موقعة يوزييفت ؟ لقد قتل فيها أربعون جنرالا من أصحابكم وأسرنا أربعة جيوش . فهل تظن ملك بروسيا له مثل قوتى ؟

فطابت لى تلك المقارنة على لسان قاطع الطريق الأفاق وقلت :

— ما رأيك أنت ؟ أتظن نفسك قادراً على قهر فردريك ؟

— فردريك الكبير ؟ ولم لا ؟ لقد هزمت جنرالاتكم . وجنرالاتكم سبق لهم أن هزموه . وحتى الآن لم تزل جيوشى مظفرة . فانتظر قليلا وسترى الأعاجيب عندما أزحف على موسكو

— وهل تنوى حقا الزحف على موسكو ؟

فاستغرق بوجاتشيف فى التفكير ثم قال بصوت خافت :

— الله أعلم .. والحقيقة انى لست شديد الرغبة فى ذلك . فرجالى غير مهذبين ولا يطيعوننى إلا طمعا . انهم أوغاد سينقلبون ضدى عند أول نكسة ويشترون رقابهم برأسى

— أليس من الأوفق لك إذن أن تبدأ أنت بالتخلى عنهم قبل فوات الأوان . وتلجأ الى مراحم القيصرة ؟

فابتسم بوجاتشيف ابتسامة مرة وقال :

— فات أوان ذلك . فلن يمنحونى الآن العفو . فليس أمامى سوى الاستمرار فى طريق الذى بدأته . ومن يدرى ؟ ربما كتب لى التوفيق

وشرد بعد ذلك يبصره وراح يدندن أغنية تترية والزحافة تمرق كالسهم فوق الجليد . وسافيليتش يغط ويترنح مع اهتزازات الزحافة

وفجأة لمحت قرية صغيرة أعرفها جيداً على ضفاف نهر يايك . وبعد ربع ساعة كنا ندخل قلعة بيلوجورسك

maktbtna.com

الفصل الرابع والعشرون

ماري في السجن

وقفت الزحافة أمام شرفة بيت القائد فى بيلوجورسك وكان الأهالى قد عرفوا صوت أجراس زحافة بوجاتشيف فخرجوا على الفور لاستقباله متجمعين وأقبل شفابرين للقاء الثائر وقد ارتدى ثياب القوزاق وترك لحيته تنمو وتطول . وساعد الخائن بوجاتشيف على الخروج من الزحافة وهو يعبر عن سروره الفائق بعبارات التملق والذلة

ولما رآنى شفابرين اضطرب بيد أنه ملك زمام نفسه بسرعة وقال :

— هل أنت الآن معنا ؟ كان ينبغى أن يكون ذلك منذ زمن طويل

فأشحت بوجهى عنه ولم أجب

maktbtna.com

وانقبض قلبي حينما دخلنا الحجرة الصغيرة التى كنت أعرفها جيداً . والتى كنت أبصر — معلقاً على جدارها — براءة رتبة الضابط التى منحت للضابط الراحل لم تزل حيث كانت

وجلس بوجاتشيف على تلك الأريكة نفسها التى طالما جلس فوقها ايفان كوزميتش ليتلقى تأنيب زوجته فى امتثال وإذعان

وحمل شفابرين بنفسه الشراب الى زعيمه . فتجرع بوجاتشيف كوباً على عجل ثم قال له وهو يشير نحوى :

— قدم كأساً الى صاحب السعادة

مكتبتنا

فاقترب شفابرين منى وهو يحمل الصينية . فأشحت بوجهى للمرة الثانية . وخيل الىّ أنه يكاد ينشق من الغيظ

ولا أشك أنه بفطنته المعتادة أدرك أن بوجاتشيف ليس راضياً عنه كل

الرضى . ولهذا كان يرمقه فى فزع وينظر نحوى فى ريبة وسوء ظن

وألقى عليه بوجاتشيف بضعة أسئلة عن حالة القلعة وعما يقولونه بصدد قوات الامبراطورة وما الى ذلك من الموضوعات التى تشغل الأذهان فى مثل ذلك الموقف . ثم فجأة سأله على غير انتظار :

— قل لى يا شفابرين من هى هذه الفتاة الشابة التى تبقيها تحت سيطرتك وحراستك ؟ دعنى أراها

فاكفهر وجه شفابرين كوجوه الموتى . وقال بصوت مرتعد :

— قيصر . قيصر . . . إنها ليست تحت حراستى . بل راقدة فى الفراش داخل حجرتها الخاصة يا مولانا القيصر

فقال بوجاتشيف وهو ينهض واقفاً :

— إذن قدنى اليها !

فلم يعد هناك مجال للتردد . وكان الرفض مستحيلا . فقاد شفابرين بوجاتشيف الى حجرة مارى ايفانوفنا . وتبعتهما . فوقف شفابرين وسط السلم فجأة وقال :

— قيصر . تستطيع أن تطلب منى أى شىء تشاء . ولكن لا تاذن لرجل غريب أن يدخل حجرة نوم زوجتى

فصرخت وأنا أوشك أن أمزقه تمزيقاً :

— زوجتك ؟ !

فقاطعنى بوجاتشيف قائلا :

— صه ! هذه مسألتى أنا !

ثم التفت نحو شفابرين وقال له :

— وأنت لا تحاول التظاهر بالحذق والخطر . سواء كانت هذه الفتاة زوجتك أو لم تكن . فسآخذ من أشاء اليها . أفاهم أنت ؟ ! اتبعنى يا صاحب السعادة الى الداخل !

وعند باب الحجرة وقف شفابرين من جديد وقال بصوت متقطع :

— قيصر . أريد أن أنبهك الى أنها مصابة بالحمى . ومنذ ثلاثة أيام لا تكف عن الهذيان والتهريف

فلم يزد بوجاتشيف على أن قال له باختصار :

— افتح ! . .

فأخذ شفابرين يبحث فى جيوبه وانتهى بأن قال إنه نسى المفتاح لا يدرى أين . فدفع بوجاتشيف الباب بقدمه . فانفتح الباب على مصراعيه ودخلنا

وألقيت نظرة سريعة على الحجرة فأوشكت أن أسقط مغشياً علىّ . فهناك فوق البلاط العارى ، وفى ثياب فلاحة خشنة ممزقة ، رأيت مارى جالسة شاحبة الوجه هزيلة مشوشة الشعر

وأمامها رأيت جرة ماء وقد غطيت فوهتها بقطعة من الخبز . فلما أبصرتنى ارتعدت وأطلقت صرخة ثاقبة . أما أنا فلا أستطيع أن أصف ما خالجنى من الشعور.

ونظر بوجاتشيف الى شفابرين شذراً وقال له بابتسامة صفراء :

— أهذا مستشفاك ؟ ! إن مستشفاك يا صاحبي على خير مايرام !

ثم اقترب من مارى وقال لها :

— خبرينى يا يمامتى الصغيرة لماذا يعاقبك زوجك على هذه الصورة ؟

فانتفضت مارى وقالت :

— زوجى ؟ ! إنه ليس زوجى . ولن أكون زوجته أبداً . فقد وطنت النفس على الموت إن اقتضى الأمر قبل أن أكون زوجتـه . فان لم تخلصونى منه فسأقتل نفسى لا محالة !

فرمى بوجاتشيف شفابرين بنظرة غضب هائلة وصاح به :

— هل تجاسرت يا رجل أن تكذب علىّ ؟ أتدرى أيها الوغد ماذا تستحق جزاء لك على تلك الجريمة ؟

فارتمى شفابرين فوق ركبتيه متوسلا

وشعرت أنا بحقدى عليه وقد خمـد . لأن إحساسى باحتقاره طغى على الكراهية وعلى الانتقام . تقززت حين رأيت سيداً من سلالة نبيلة يمرغ جبينه تحت قدمى جندى قوزاقى هارب من الخدمة

ورق قلب بوجاتشيف لشفابرين وقال له :

maktbtna.com مكتبتنا



« ورأيت مارى جالسة شاحبة الوجه وأمامها جرة ماء غطيت فوهتها بقطعة من الخبز »

— عفوت عنك هذه المرة . ولـكن عند أول زلة لك سأتذكر على الفور زلتك هذه

ثم توجه الى مارى قائلا بكل رقة :

— أخرجى أيتها الجميلة من محبسك . أنا القيصر

فألقت عليه مارى ايفانوفنا نظرة خاطفة وأدركت على الفور ان هذا الرجل الماثل أمام عينيها ومخلصها هو بعينه قاتل والديها ؟

وغطت مارى وجهها بيديها ثم وقعت فاقدة الرشد . فبادرت لمساعدتها . وإذا بالخادم بلاشكا تدخل بكل جسارة الى الحجرة وتعنى بسيدتها . فخرج بوجاتشيف ونزلنا نحن الثلاثة الى حجرة الاستقبال وهناك قال بوجاتشيف لى وهو يضحك مسروراً :

— والآن ياصاحب السعادة وقد نجينا فتاتك الجميلة . ماقولك ؟ أليس من الأوفق أن ترسل فى طلب القسيس الآن كى يقوم بتزويج قريبته . وإن شئت فسأكون أنا اشبينك . وسيكون شفابرين وصيف العرس . وبعد هذا نقلب الحفل الى سكرة مليحة بعد أن نغلق علينا الأبواب !

maktbtna.com

وحدث ما كنت أخشاه . فان شفابرين ما أن سمع اقتراح بوجاتشيف حتى طاش صوابه ، وقال وهو فى ثورة الغضب :

— أنا أعترف يا قيصر انى كذبت عليك . ولـكن السيد جرينيف هذا يكذب عليك ويخدعك . فهذه الفتاة ليست قريبة القسيس . بل هى ابنة ايفان ميرونوف الذى أمرت بتعذيبه وشنقه بعد أن استوليت على هذه القلعة . لأنه كان قائدها وتجاسر على الوقوف فى وجه القيصر

فوجه بوجاتشيف إلىّ عينيه الناريتين وصاح فى دهشة واستنكار :

— ما هذا الذى يقول ؟



فأجبته بكل ثبات :

— شفابرين فى هذه المرة يقرر الواقع

فاكفهر وجه بوجاتشيف وقال :

— ولـكنك لم تخبرنى بذلك !؟

فقلت له وأنا أتذرع بكل هدوئى :

— كن أنت نفسك حكما فى الموضوع وقاضياً عادلا . هل كان فى استطاعتى أن أعلن أمام رجالك انها ابنة ميرونوف ؟ انهم كانوا يمزقونها بأسنانهم وما كان شىء ليجدى فى إنقاذها منهم

فهز بوجاتشيف رأسه وقال :

— معك حق . فان هؤلاء الأوغاد ما كانوا ليبقوا على هذه المسكينة . وخيراً صنعت زوجة القسيس بالكذب عليهم

فلما رأيته ميالا للتساهل والتسامح استطردت :

— اسمع . انى لا أدرى بماذا أناديك . ولا أريد أن أعرف . ولكن الله شاهد على انى مستعد أن أدفع حياتى ثمناً لما فعلته بى من المعروف . ولكن أرجوك فقط ألا تطلب منى شيئاً مناقضاً للشرف العسكرى أو للذمة المسيحية. انك أحسنت إلىّ . فأتم ما بدأته . ودعنى أذهب مع هذه اليتيمة المسكينة الى حيث يقودنا الله . أما نحن . فأياً كان المصير الذى ننتهى اليه . وأياً كنت . فنحن سندعو الله كل يوم كى يصون حياتك . وينعم عليك بالسعادة وراحة النفس

ويظهر أننى مسست بهذه الكلمات قلب بوجاتشيف فقال :

maktbtna.com

— فليكن لك ما أردت . لأنه كما يقولون إما أن نعاقب حتى النهاية أو نصفح حتى النهاية هذه عادتى . فخذ خطيبتك واذهب بها حيث شئت ولينعم عليكما الله بالسعادة والحكمة والصواب

والتفت بوجاتشيف الى شفابرين فأمره أن يكتب جواز مرور وأمان صادراً منه الى جميع المواقع والقلاع الخاضعة لسلطانه . فوقف شفابرين مبهوتاً . وانصرف بوجاتشيف ليفتش القلعة وشفابرين يتبعه . أما أنا فبقيت فى مكانى متذرعاً بالاستعداد للسفر





الفصل الخامس والعشرون

مع ماري الى الريف

وبمجرد خروج بوجاتشيف مع شفابرين للتفتيش ، أسرعت الى حجرة ماري . فوجدت بابها مقفلا . فطرقته . وسمعت صوت بلاشكا تسأل :

— من هناك ؟

فذكرت لها اسمي . وسمعت صوت ماري العذب من وراء الباب يقول :

— انتظر يا بطرس أندريتش . فانى أغير ملابسى . إذهب عند اكولينا زوجة القسيس وسألحق بك هناك بعد لحظة

فأطعتها وذهبت الى منزل الأب جراسيم وأسرع القسيس وزوجته لملاقاتى بفرح ولهفة . وكان سافيليتش قد أخبرها بكل ما حدث . وقالت لى اكولينا فى لهجتها الثرثارة المعهودة :

— أهلا بك وسهلا يا بطرس اندريتش . ها هو الرب قد فعل كما قلت لك من قبل . شاء أن نلتقى مرة أخرى . كيف صحتك ؟ وأحوالك ؟ أقسم لك اننا كنا نتكلم عنك ونذكرك فى كل يوم . وماري المسكينة . ماري ايفانوفنا.. أي عذاب كانت ستعيش فيه لولاك ؟. هذه اليمامة الصغيرة ! ولـكن قل لى بهذه المناسبة قبل أن أنسى . كيف يا أبى الصغير استطت أن تفلت من وحشية بوجاتشيف وتظفر بالحظوة عنده ؟ كيف لم يقتلك ؟

وكفانى مئونة هذا الحرج ان الثرثار لا يهتم كثيراً بتلقى اجابات على أسئلته . بل المهم عنده أن يتكلم . ولهذا استطردت بدون توقف :

— الحمد لله على كل حال . ونحن نشكره من أجلك !

وقاطعها زوجها الأب جراسيم قائلا :

— كفى أيتها العجوز ! لا تثرثرى كثيراً فيما لا تفهمين . فكثرة الكلام تزعزع السلام . أدخل يا بطرس أندريتش ومرحباً بك وسهلا . مضى وقت طويل لم نحظ فيه بمرآك . تفضل

ودخلت وأخذت زوجة القسيس تقدم لى الطيبات من كل ما تحت يدها من غير أن تتوقف لحظة واحدة عن الكلام . فسردت على مسامعى كيف أكرهها شفابرين على تسليم مارى ايفانوفنا اليه . وكيف كانت الفتاة المسكينة تبكى ولا تريد أن تفارقهما . وكيف ظلت على اتصال مستمر بهما طول الوقت ، الذى حبسها فيه شفابرين . وذلك بوساطة بلاشكا التى أثبتت إخلاصها الوطيد وولاءها . واستطاعت بلاشكا بسبب سلطانها على قلب مكسيميتش صول القوزاق أن تغريه بحمل رسالة مارى ايفانوفنا كى يحتال على تسليمها إلىّ فى أورنبورج أو فى الناوشات خارج أسوارها

ومن جهتى رويت لهما فى كلمات موجزة قصتى . وكان القسيس وزوجته يرسمان الصليب مراراً عند كل محنة أذكرها . فلما سمعا ان بوجاتشيف اكتشف انهما كذبا عليه فى صدد مارى . ازدادت كثيراً جداً سرعتهما فى رسم علامات الصليب على صدريهما . وصاحت اكولينا :

maktbtna.com

— فليحمنا الرب ! وليصرف الرب عنا هذه الغمامة ! ان شفابرين حقاً ثعلب ماكر ! لعنه الله !

وفى هذه اللحظة انفتح الباب وظهرت مارى ايفانوفنا وعلى وجهها الشاحب ابتسامة . وكانت قد خلعت ثياب الفلاحة الخشنة وجاءت فى ثيابها المألوفة التى تتصف بالبساطة والذوق السليم

وتناولت يدها فى يدى . وظللت مدة طويلة لا أستطيع أن أنطق بكلمة. صمت كلانا لأن قلبينا كانا حافلين بما يعجز اللسان عن الافضاء به

مكتبتنا

وأدرك القسيس وزوجته أن لدينا ما نهتم به سوى التحدث اليهما . فتركانا وخرجا وبقينا وحدنا



وروت لى مارى كل ما وقع لها منذ سقوط القلعة . وصورت لى بشاعة موقفها وجميع ألوان العذاب التى أذاقها إياها الملعون شفابرين

وجعلنا نتذاكر ماضينا السعيد ونحن الاثنان نذرف الدمع . وبعد لأى استطعت أن أسترد جأشي وأعرض عليها مشروعاتي . إذ كان واضحاً أنها من المستحيل أن تبقى فى قلعة يتولى القيادة فيها شفابرين

ومن جهة أخرى كان من المستحيل أن تلجأ معى الى أورنبورج . لأن هذه المدينة تعانى فى الوقت الحاضر كوارث الحصـار . ويضاف الى ذلك ان مارى ليس لها أى أقارب على قيد الحياة بعد وفاة والديها

ولهذا اقترحت عليها أن تذهب الى بيت أسرتى الريفى . ودهشت مارى دهشة شديدة لهذا الاقتراح . لأن رد الفعل السيء الذى أظهره والدى من جهتها كان يخيفها . فأخذت أطمئنها . لأنى كنت أعلم ان أبى سيرى من واجبه ومن مقتضيات الشرف أن يكرم وفادة ابنة محارب قديم سقط فى ميدان الشرف دفاعاً عن واجبه ووطنه . وأخيراً قلت لها :

— ياعزيزتى مارى . إنى أعتبرك زوجتى . لأن هذه الظروف الغريبة قد ربطت بيننا رباطاً لا انفصام له . ولن يستطيع شيء فى العالم أن يفرق بيننا . مهما حدث . هذا عهد وميثاق

وكانت مارى ايفانوفنا تصغى لما أقوله فى صمت ورهبة . من غير حياء متكلف أو مناورات لا معنى لها . لأنها كانت تشعر كما أشعر ان مصيرها قد ارتبط بمصيرى كل الارتباط . ومع ذلك أخذت تكرر على سمعى انها لن تغدو زوجتى إلا بموافقة والدى . فلم أجد ما أرد به عليها . وأصبح اقتراحى هو القرار النهائى الذى سننفذه



وبعد ساعة حضر صول القوزاق يحمل إلىّ جواز المرور والأمان ممهوراً بخطوط متقاطعة غير منتظمة . وأخبرنى ان القيصر ينتظر حضورى

وأسرعت الى هناك فوجدته يتأهب للركوب . وكيف لى أن أشرح طبيعة احساسى أمام ذلك الرجل الهائل القاسى الذى يفزع الناس جميعاً إلا أنا ؟ بل لماذا لا أقول الحقيقة كلهـا . وهى إحساسى فى تلك اللحظة بمودة قلبية قوية تجذبنى اليه . حتى تمنيت لو انتزعته من حفنة اللصوص التى يتزعمها كى أنقذ رأسه قبل أن يفوت الأوان !

بيد ان وجود شفابرين ، والجمهور الحاشد الذى يلتف حولنا ، كل ذلك

منعنى من الاعراب له عن تلك المشاعر التى يزدحم بها فؤادى

وافترقنا كما يفترق الأصدقاء . ولما لمح بوجاتشيف وسط الجمهور العجوز اكولينا زوجة القسيس هددها مازحاً بسبابته وهو يغمز بعينه . ثم جلس فى زحافته وأصدر الأمر بالعودة الى قرية « برد » مركز قيادته . فلما تحفزت الجياد للانطلاق انحنى خارج العربة وصاح بى :

— الى اللقاء !. وعسى الله أن يأذن فنلتقى مرة أخرى بتدبير من عنايته !

وفى الواقع التقينا مرة أخرى بعد ذلك ولكن فى ظروف غريبة جداً



ورحل بوجاتشيف ووقفت برهة طويلة أرمق السهوب المترامية المغطاة بالجليد والتى تمرق الزحافة فوقها فى سرعة هائلة

وتفرقت جموع الأهالى . واختفى شفابرين . وعدت الى بيت القسيس حيث كان الاستعداد قائماً لسفرنا . وقد حزمت الحقائب ووضعت فى العربة العتيقة التى كان يملكها القائد الراحل

maktbtna.com

وبعد برهة كانت الجياد قد شدت اليها . وذهبت مارى ايفانوفنا لتلقى تحية الوداع الأخير على مقبرة والديها اللذين دفنا خلف الكنيسة . وأردت أن أقودها بنفسى الى هناك لأصحبها . بيد انها رجتنى أن أدعها تذهب وحدها . ولم تلبث أن عادت بعد قليل وهى تذرف دموعها فى صمت

وخرج الأب جراسيم وزوجته الى الشرفة لتوصيلنا وتوديعنا . وركبنا الزحافة نحن الثلاثة فى مقعد واحد . مارى وبلاشكا وأنا . أما سافيليتش فجلس فى المقعد الأمامى . وقالت زوجة القسيس :

— وداعاً يا مارى ايفانوفنا ياعامتنا العزيزة ! وداعاً يا بطرس أندريتش ياصقرنا الجميل ! مع السلامة وليمنحكما الرب السعادة والهناء !

وانطلقت الزحافة . ولمحت خلف زجاج نافذة القائد عدونا شفابرين ووجهه يفيض بالحقد والغيظ . فلم احبب أن أتشفى فيه وهو مهزوم وأشحت بوجهى عنه وأخيراً اجتزنا الى الأبد حدود قلعة بيلوجورسك

الفصل السادس والعشرون

الاعتقال

لقد جمعتني الأقدار بوسائلها المعجزة بتلك الفتاة عينها التي كانت منذ ساعات يسبب مصيرها لي القلق والألم . فلا عجب أن يخيل إليّ في بعض الأحيان ان الذي أمر به ليس إلا حلماً . وفي الوقت نفسه كانت ماري ترمقني بنظرة شاردة . ثم تحول طرفها الى الطريق . وكأنها لم تسترد بعد رشدها تمام الاسترداد

لزمنا الصمت معظم الرحلة . لأن جيشان قلوبنا كان يعتقل ألسنتنا . وبعد ساعتين وصلت بنا الزحافة الى القلعة المجاورة . وهي خاضعة أيضاً لسلطان بوجاتشيف . فاستبدلنا فيها بجيادنا المتعبة جياداً أخرى . وأدركت من المبادرة الى خدمتنا ، تلك الخدمة التي قام بها قوقازي ملتح عينه بوجاتشيف قائداً هناك ، ان تصريح الأمان الذي نحمله والمظاهرة التي حضرت بها في صحبة بوجاتشيف جعلت الجميع يعتقدون اعتقاداً جازماً انني من أصحاب الحظوة عند مولاهم

ولما استأنفنا السفر كان الظلام قد أخذ يخيم . واقتربنا بعد ذلك من مدينة صغيرة كان قائد القلعة السابقة ، ذلك القوقازي الملتحي ، أكد لنا أن بها حامية قوية تزحف في طريقها للانضمام الى الثائر

وأوقفنا الديدبان في الطريق صائحاً من هناك ؟

وأجابه الحوذي الذي كان معيناً لخدمتنا من قبل بوجاتشيف نفسه :

— شقيق القيصر في الرضاع . مسافر مع حرمه

وعلى الفور انشق ظلام الليل عن كوكبة من الفرسان الروس أحاطوا

بزحافتنا وهم يطلقون سباباً بليغاً وصاح الجاويش وشارباه الكثيفان يرقصان غضباً وتحفزاً :

— أخرج يارضيع الشيطان ! ستأخذك الى الحمام أنت وحرمك ! نظفوه جيداً واسلخوا جلده أيها الشجعان !

فخرجت من الزحافة وطلبت أن يأخذونى الى قائد الموقع . فلما رأى الجنود أمامهم ضابطاً بملابسه الرسمية كفوا عن البذاءة . وأخذنى الجاويش وسار سافيليتش ورائى وهو يدمدم ساخطاً :

— هذه عاقبة مؤاخاة القيصر فى الرضاع !. لقد خرجنا من الرماد لنقع فى ألسنة النار . يارب كيف ستكون الخاتمة ؟

وتبعتنا الزحافة ببطء . وبعد خمس دقائق وصلنا الى بيت صغير مضاء إضاءة شديدة . ودخل الجاويش بعد أن تركنى فى حراسة قوية كى يعلن نبأ اعتقالى وظروف ذلك الاعتقال . ثم رجع بعد برهة واحدة ليخبرنى ان صاحب السعادة القومندان ، ليس لديه وقت لاستقبالى . وانه أصدر اليه الأمر باقتيادى الى السجن وأن يأتيه بالسيدة حرمى !

maktbtna.com

فصحت غاضباً :

— ما معنى هذا الكلام الفارغ ؟ أتراه جن ؟

فأجاب الجاويش قائلا :

— هذا أمر لا أدرى عنه شيئاً ياصاحب السعادة . كل ما أعلمه ان سعادته أمرنى باقتياد سعادتكم الى السجن . وأن أحضر سعادتها الى سعادته . ياصاحب السعادة !

فاقتحمت الشرفة . ولم يتسع الوقت أمام الديدبانات للحيلولة بينى وبين الدخول . فوجدت نفسى فى حجرة بها ستة ضباط من سلاح الفرسان يلعبون الورق . والقومندان هو الذى يتولى دور البنك

مكتبتنا

وكم كانت دهشتى بعد أن حملقت فيه لحظة . أن أعرف فى هذا القومندان صاحبي القديم زورين الذى تولى تدريبي على الخدمة العسكرية بتفريغ كيس نقودى فى فندق قرية سمبرسك وهو يلاعبنى البلياردو بعد أن لعبت الخمر برأسى .

فصحت متهللا :

— هل هذا ممكن ؟ أأنت هنا ؟

— أى مفاجأة سعيدة ! أهلا بطرس أندريتش ! من أين أنت قادم ؟ أهلا أهلا يا أخى . ألا تريد أن تلعب معنا الورق ؟

— شكراً لك . ولكن أريد أولا أن تدبر لى سكناً

— ولماذا تريد سكناً ؟ أمكث معى هنا فى بيتى

— لا أستطيع . لست وحدى

— أصدقاء صديق أصدقائى . أحضر معك زميلك

— ليس معى زميل . بل ... سيدة

— هم ! معك سيدة !؟ ومن أين اقتنصتها فى هذه الأيام العصيبة أيها الأخ؟ يالك من ماكر محظوظ !

ثم صفر بفمه ورفع حاجبيه فجعلنا جميعاً نضحك . ثم ارتبكت فقال :

— لا حيلة لى فى الأمر . سأدبر لك سكناً . ولكن هذه خسارة كبيرة لأنى كنت أريد أن ننتهز الفرصة ونقضى الوقت معاً كالزمان السالف

ثم صفق بيده وزعق ينادى جندى المراسلة :

maktbtna.com

— أين هى زوجة رضيع بوجاتشيف ؟ أهى متشبثة بالعناد ؟ قل لها لا تخافى . فان السيد الذى يريدها طيب ولطيف ولن يصيبها بسوء . ولكن فى الوقت نفسه عليك وأنت تقول لها هذا الكلام أن تدفعها من كتفيها دفعاً وتحضرها هنا عنوة

فقلت لزورين :

— ما هذا ؟ وعن أى رضيع لبوجاتشيف تتكلم . إن هذه السيدة ابنة المرحوم الكابتن ميرونوف . وقد خلصتها من أسرها ونحن الآن فى طريقنا لتوصيلها الى بيت أبى حيث سأتركها تحت رعايته

مكتبتنا

— كيف ! هو أنت إذن الذى حدثونى عنه منذ لحظة ؟ بحق السماء ما معنى هذا الكلام ؟..

— سأحكى لك كل شىء فيما بعد . أما الآن فأرجو منك أن تطمئن هذه الفتاة المسكينة لأن جنودك أفزعوها كثيراً

وعلى الفور اتخذ زورين جميع الاجراءات . فخرج بنفسه الى الشارع كى

يقدم اعتذاره الى مارى عن سوء الفهم الذى وقع فيه عن غير قصد . ثم أمر الجاويش أن يقودها الى أحسن مسكن فى المدينة . وبقيت أنا للمبيت عنده . فى بيته

وتناولنا العشاء معاً . ومعنا بقية الضباط . حتى إذا انصرفوا وبقيت مع زورين وحدنا قصصت عليه مغامرتى كلها . وكان يصغى الى ما أقول بانتباه عظيم . فلما انتهيت من كلامى قال لى :

— كل هذا جميل جداً يا أخى . ولكن هناك مسألة ليست على مايرام . لماذا بحق الشيطان تريد أن تتزوجها ؟ انى أريد أن أخلص لك النصح كضابط أمين وصديق وفى لا يميل الى خداعك . صدقنى ان الزواج ليس سوى حماقة كبرى . فلماذا تكبل نفسك بالارتباط بزوجة ثم بشرذمة من الخلف الصالح يرهقونك ببكائهم وطعامهم ونوبات إسهالهم ؟ ابصق على هذا كله بملء فمك . واسمع نصيحتى وانفض يدك من ابنة القائد هذه . واعلم انى طهرت الطريق الى سنبرسك وأمنتها . فارسل الفتاة غداً الى منزل أبويك مع خادمك وامكث أنت مع فرقتى هذه . وفى هذه الحالة لاضرورة لعودتك الى أورنبورج لأن الطريق اليها محفوف بمعسكرات الثوار . وإذا وقعت مرة أخرى بين أيديهم فليس من المضمون أن تنجو منهم ومن شرهم . ومتى افترقت عن صاحبتك فسوف تسلوها سلواً طبيعياً



ومع أننى لم أكن أرى رأيه أو أنظر الى الأمور من وجهة نظره . إلا انى كنت أشعر ان واجبي وشرفى يقتضيان منى الوجود فوراً بين صفوف قوات القيصرة . ولهذا قررت أن آخذ بنصيحة زورين . من حيث إرسال مارى ايفانوفنا الى بيت والدى مع خادمى . على أن أبقى أنا فى هذه المدينة وأنضم الى فرقة زورين

الفصل السابع والعشرون

الوداع الثانى

حضر سافيليتش ليساعدنى فى خلع ملابسى . فأخبرته أن يكون على قدم الاستعداد للسفر فى اليوم التالى مع مارى ايفانوفنا . فقال :

— وكيف تريدنى يامولاى أن أسافر ؟ ماهذا الذى تقول ؟ كيف أتركك ؟ ومن الذى يخدمك فى غيابى ؟ وماذا يقول والداك ؟

ولما كنت أعرف عناد سافيليتش . فقد عولت على التأثير عليه باخلاصى وبملاطفاتى . الى أن يلين . فقلت له :

— يا صديقى العزيز سافيليتش . لا تزد موقفى صعوبة . وهمومى شدة . ترفق بى وكن عونى . واعلم أنى هنا لست محتاجاً الى خادم . ولن أكون مطمئناً ان سافرت مارى ايفانوفنا وحدها من دون صحبتك . وأنت إذ تخدمها تخدمنى أجل خدمة لأنى عولت بكل عزم أن أتزوجها بمجرد أن تسمح لى الظروف بذلك

maktbtna.com

وعقد سافيليتش يديه فى شىء من الدهشة . بل فى ذهول لايوصف فوق صدره وقال لى :

— تتزوج ؟ الطفل يريد منذ الآن أن يتزوج ! ألا تستحى ؟ وماذا يقول أبوك لو سمع هذا ؟ وأمك ماذا ستظن بك ؟

— سيوافقان بلا شك بمجرد أن يعرفا حق المعرفة مارى ايفانوفنا . وأنا أعتمد عليك فى ذلك . لأن أبى وأمى لهما كامل الثقة فيك وأنت ستكون واسطة خير من أجل خاطرى . أليس كذلك ؟

فتأثر العجوز وأجابنى :

— يا أبي الصغير بطرس أندريتش . إنك حقيقة تريد أن تتزوج قبل الأوان المناسب بكثير . ومع هــذا فان مارى ايفانوفنا آنسة فاضلة جداً . بحيث يكون من الخطأ ، بل من الإثم فى حق الرب الذى يحب الصالحين ، أن أترك هذه الفرصــة لإسعادك وإصلاح حالك تضيع سدى . سأفعل يا أبى الصغير ما تريد . سأصحب هــذه الابنة المباركة من الرب الى بيت أبيك . وسأقول بكل خضوع لوالديك إن خطيبة هذا شأنها ليست بحاجة الى بائنة

فشكرت سافيليتش ، وتوجهت لأشارك زورين حجرته . ولفرط انفعالى جعلت أدندن وأثرثر . وكان زورين يصغى لثرثرتى بارتياح فى مبدأ الأمر . ثم أخذت عباراته تتباعد وتزداد غموضاً . وأخيراً أجاب على أحد أسئلتى بصوت غطيط حاد . فاقتديت به ونمت



وفى اليوم التالى شرحت لمارى وجهة نظرى . فأدركت صوابها على الفور ووافقت على تنفيذها

ولما كانت فرقة زورين ستغادر المدينة فى ذلك اليوم نفسه ، لم يعد هناك مجال للتردد . ففارقت مارى بعد أن عهدت بها الى عناية سافيليتش وأعطيتها خطاباً لوالدى

maktbtna.com

وودعتنى مارى ايفانوفنا وهى تنتحب . ولم أستطع أن أرد عليها بما يمليه قلبي ، لأنى لم أشأ أن أفصح عن عواطفي أمام الناس الذين كانوا واقفين حولنا . ثم عدت الى بيت زورين وأنا صامت أفكر

وأراد زورين أن يسرى عنى ويضحكنى . وأردت أنا أيضاً أن أتغلب على حزنى . فأمضينا ذلك اليوم فى ضجة صاخبة . وفى اليوم التالى رحلت الفرقة



وكان الوقت حول نهاية شهر فبراير . والشتاء الذى جعل العملية الحربية عسيرة شارف على الانتهاء . وجنرالاتنا أخذوا يستعدون لمعركة منظمة

وكان بوجاتشيف قد جمع قواته حول مدينة اورنبورج . ولما أخذت قواتنا تقترب جعلت القرى المتمردة تدخل فى الطاعة واحدة بعد الأخرى .

وبعد قليل استطاع الأمير جاليتزين أن ينتزع النصر التام على بوجاتشيف بالقربّ من قلعة تاليتشيف

وفك المنتصر حصار اورنبورج وقد وضح أنه قضى القضاء المبرم على حركة التمرد . وعلى هذا الأساس اتجه زورين بفرقته لتأديب البشكير المتمردين فرأيناهم يتفرقون أمامنا قبل أن ندركهم

وفاجأنا الربيع ونحن فى قرية تترية صغيرة . والربيع فى الروسيا يسيل فيه الجليد فتفيض الأنهار وتقطع الطرق . فوجدنا أنفسنا محبوسين فى تلك القرية ونحن نتعزى بأن الحملة لم تعد تحتاج لجهودنا وان هؤلاء اللصوص لم تعد لهم قائمة . بيد ان بوجاتشيف لم يكن وقع فى الأسر . فرأيناه يظهر من جديد فى مناطق مناجم الحديد بسيبيريا . وقد جمع شراذم جديدة واستأنف أعمال السطو والنهب

وسرعان ماتناهى الى سمعنا تخريب قلاع سيبيريا ثم سقوط قازان . ثم زحفه الجرىء على موسكو . فصدر الأمر الى زورين بعبور نهر الفولجا

وليس من مرادى هنا أن أروى بالتفصيل حوادث تلك الحرب . ولهذا أكتفى بأن أقول ان الحالة كانت عصيبة جداً . وان الأشراف كانوا يختفون فى الغابات . ونفوذ الحكومة تلاشى فى كل مكان . فصار رؤساء الفرق المعزولة يعاقبون ويكافئون ويصفحون من غير رجوع الى السلطات . حتى صار ذلك الاقليم الجميل المترامى طعمة للحديد والنار

وأخيراً هزم بوجاتشيف أمام ميكلسن . وهرب من جديد . ثم تلقى زورين بعد ذلك بقليل نبأ وقوعه فى الأسر فانتهت بذلك الحرب

وبذلك صار فى مقدورى أن أعود الى بيت والدى . وقد تشوقت أن أقبلهما وأرى مارى التى لم أسمع منذ فراقها شيئاً من أخبارها . وملأتنى تلك الفكرة بسرور شديد حتى رحت أقفز وأنط كالأطفال . وجعل زورين يضحك منى ويقول وهو يهز كتفيه :

— انتظر يا صاحبي حتى تتزوج وستندم على هذه الأيام وتتحسر

ومع ذلك شاء القدر أن تتسمم منابع سرورى بشعور مناقض . لأنى

تذكرت ذلك الرجل الملطخ بدماء الضحايا البريئة وتصورت العذاب الذي ينتظره . فتألمت . وجعلت أتمنى لو ان هذا الرجل ألقى بنفسه على سيفه أو لقى حتفه فى الميدان ، فقد كان ذلك خيراً له من مصيره هذا . فان الرجل الذى زحف على موسكو خانته شجاعته فى اللحظة الأخيرة أمام هدفه الهائل ففقد الثقة بنفسه وانهزم . وباعه أعوانه للحكومة نظير مائة ألف روبل . فأخذوه ووضعوه فى قفص من الحديد ودخلوا به موسكو



ومنحنى زورين أجازة للسفر . وأخذت أستعد للرحيل بعد أيام قليلة لأكون بين أهلى ، وإذا بصاعقة تنقض على رأسى ..

ففى صباح يوم سفرى . دخل زورين حجرتى وفى يده ورقة وقد ظهر عليه الهم والارتباك . فانقبض قلبي وشعرت بالخوف من غير أن أدرى لذلك سبباً . وسألته بقلق :

— ماذا جرى ؟

— أمر يؤسف له . إقرأ هذا الخطاب الذى تلقيته الآن

maktbtna.com

ووجدت الخطاب عبارة عن أمر سرى الى جميع قواد الوحدات أن يلقوا القبض على شخصى أينما وجدت . وأن يرسلونى بحراسة مشددة الى قازان ، أمام لجنة التحقيق المؤلفة لفحص الأمور المتعلقة بيوجاتشيف وشركائه . فسقطت الورقة من يدى . وقال زورين :

— إن واجبي يقتضيني أن أنفذ هذا الأمر . وربما ما أشيع عن حظوتك وسفرك مع بوجاتشيف قد وصل الى مسامع السلطات العليا . وأرجو ألا تترتب على ذلك نتائج سيئة وتتمكن من تبرئة ساحتك أمام اللجنة . فلا تبتئس ولا تتردد وتوجه الى هناك فوراً

مكتبتنا

وكان ضميرى مستريحاً . بيد ان تأجيل اجتماعى بمارى ربما لبضعة أشهر أخرى كان يحز فى نفسى

وبعد أن ودعت زورين توديعاً حاراً ركبت عربتى الخفيفة ، وجلس عن جانبي اثنان من الفرسان وسيفاهما فى يديهما . وأخذنا وجهتنا الى قازان

الفصل الثامن والعشرون

المحاكمة

لم يخطر ببالى أن سبب محاكمتى هو مغادرتى أورنبورج بغير إذن . ذلك لأن الخروج لملاقاة العدو كان موضع تشجيع القواد . بيد أن الأمر ازداد تعقيداً بشهادة الشهود الذين رأونى فى صحبة بوجاتشيف ، فبدا الأمر موضع ريبة . . .

وظللت طول الطريق أفكر فى الأسئلة المحتملة وكيف ينبغى أن يكون ردى عليها . وقر قرارى أن أفضى للقضاة بالحقيقة كاملة خالصة . موقناً أن هذه هى أبسط الوسائل وأضمنها فى الوقت نفسه لتبرئتى

ووصلت الى قازان فوجدتها مهدمة مخربة من أثر الحروب والحرائق . واقتادونى على الفور الى قلعة المدينة التى ظلت سليمة لم تمس . وأدخلونى على الضابط صاحب النوبة . فاستدعى فى الحال حداداً بيطرياً وأمره فوضع الأغلال الحديدية فى قدمى . ثم أخذونى الى السجن ووضعونى فى زنزانة مظلمة رطبة بها طاقة ضيقة محصنة بالحديد

ولم تكن هذه البداية تبشر بالخير . ومع ذلك لم أفقد شجاعتى ولا أملى . ولجأت الى العزاء الأول الذى يلوذ به جميع المنكوبين والمظلومين ، وهو الصلاة . وبعد صلاة حارة قلبية ، نمت نوماً عميقاً ، من غير أن أفكر فيما سيحدث لى بعد ذلك

وفى اليوم التالى جاء السجان فأيقظنى وأخبرنى أن اللجنة تدعونى للمثول أمامها . وقادنى الى هناك جنديان فاخترقنا فناء واسعاً ثم مقر القومندان الى أن دخلت قاعة فسيحة . فرأيت وراء المائدة المكدسة بالأوراق شخصين .

maktbtna.com
مكتبتنا

أحدهما جنرال متقدم فى السن يبدو عليه البرود والصرامة . والآخر ضابط شاب فى الحرس لا يكاد يتجاوز الثلاثين من العمر ، يدل مظهره على الظرف والرقة . وأمام مائدة أخرى قريبة من النافذة جلس سكرتير وفى أذنه الريشة منكباً على الأوراق ومستعداً لتسجيل أقوالى بحروفها

وبدأت الأسئلة بسؤالى عن اسمى ورتبتى . ولما سمع الجنرال أننى ابن أندرى جرينيف الضابط السابق صاح بحدة :

— إنها لخسارة كبرى أن ينجب رجل فاضل مثله ابناً مشيناً مثلك !

فأجبته بهدوء :

— إنه أياً كانت الاتهامات المنسوبة إلىّ ، فانى أتعشم أن أفندها من غير صعوبة باعتراف صريح صادق بالحقيقة كاملة

بيد أن هذه الثقة ببراءتى لم تعجب الجنرال فقطب حاجبيه وقال :

— إنك ثرثار جرىء.. ولكنا رأينا من قبلك كثيرين على شاكلتك

وعندئذ سألنى الضابط الشاب ماهى الظروف التى جعلتنى ألتحق بخدمة بوجاتشيف ، وما هى الأغراض التى استخدمنى فيها . فأجبته باستنكار شديد :

maktbtna.com

— إننى ضابط ومن نسب شريف . وإنى لم أكن فى يوم من الأيام فى خدمة بوجاتشيف ولم يكلفنى بأى مهمة

— إذن كيف تسنى للضابط الشريف النسب أن يكون هو الشخص الوحيد الذى عفا عنه بوجاتشيف فى الوقت الذى قتل فيه جميع زملائه ؟ وكيف تعلل ان هذا الضابط الشريف النسب نفسه كان يحضر الموائدالصاخبة الماجنة معزعماء الثوار فى جو من المودة والصفاء ؟ ويتلقى من يد بوجاتشيف هدايا عبارة عن حصان وعباءة ونصف روبل ؟ وماهو تعليل مثل تلك المودة المريبة ؟ وما هو أساسها إن لم يكن الخيانة أو على الأقل الجبن الاجرامى الذى لا يغتفر ؟

مكتبتنا

ونزلت هذه الأقوال على قلبي كطعنات الخناجر . فبدأت أدافع عن نفسى بكل استماتة وحكيت له عن مبدأ المعرفة بينى وبين بوجاتشيف فى يوم العاصفة الثلجية . وكيف عرفنى بعد أن وقعت قلعة بيلوجورسك فى يده فرد لى الجميل. وان هذا لا يطعن فى البسالة التى دافعت بها عن القلعة الى النهاية . ثم ذكرت

اسم الجنرال كارلوفيتش الذى يستطيع أن يشهد بأعمالى الجريئة وقت حصار أورنبورج الفظيع

وعندئذ تناول الجنرال العجوز من فوق المائدة خطاباً مفتوحاً وأخذ يتلوه بصوت مرتفع وهذا نصه :

« رداً على استفسار سعادتكم بخصوص اللازم جرينيف لى الشرف أن أحيطكم علماً ان هذا اللازم كان فى الخدمة بأورنبورج منذ شهر أكتوبر سنة ١٧٧٣ الى ٢٤ فبراير الحالى . وهو اليوم الذى تغيب فيه وانقطعت من هذا التاريخ أخباره . ومع هذا تردد على الألسنة أنه زار معسكر بوجاتشيف وصحبه الى قلعة بيلوجورسك . وهى القلعة التى كان هذا اللازم ضابطاً فى حاميتها من قبل . أما بخصوص سلوكه الشخصى ... »

وتوقف الجنرال عند هذا الحد وقال لى بقسوة :

— والآن ؟ بماذا تبرر سلوكك ؟

فأوشكت أن أخبره ببقية قصتى وأبين له علاقتى بمارى فى صراحة تامة . بيد انى شعرت فجأة بنفور وتقزز من الافضاء بذلك الموضوع فى مثل هـذا الموقف . وخطر لى انى لو ذكرت اسمها فسوف تستدعيها اللجنة . ويختلط اسمها بهذه الفضائح ويتعرض للشائعات وتقف جنباً لجنب مع المجرمين المتهمين

وظهر هـذا الاضطراب واضحاً على وجهى فارتاب القضاة وأساؤا تأويل الحالة . وطلب ضابط الحرس الشاب أن يواجهنى المبلغ الأصلى ضدى . فأمر الجنرال باستدعائه

والتفت نحو الباب منتظراً ظهور الشخص الذى أتهمنى . وبعد لحظات سمعت صليل الأغلال الحديدية ودخل ... شفابرين . !

ودهشت للتغير الذى طرأ عليه . فهو شاحب الوجه هزيل وقد وخط الشيب شعره الأسود . ولحيته مشعثة

وراح يكرر التهم المذكورة آنفاً بصورة آلية . وبصوت ضعيف ولكنه ثابت . مؤكداً أن بوجاتشيف أرسلنى الى أورنبورج جاسوساً لأجمع له معلومات . وانى كنت أخرج كل يوم متعللا بمناوشة العدو كى أبلغه تطورات الحالة فى المدينة وأسرارها العسكرية يوماً بيوم . الى أن تركت التخفى وانضممت

makthbtna.com
مكتبتنا

اليه نهائياً وجعلت أتنقل معه بين القلاع

وأصغيت فى صمت لـكل ما قاله . واغتبطت لشيء واحد انه لم يذكر اسم مارى . فهل كان ذلك لأن كبرياءه أبت عليه أم إبقاء على ما فى نفسه من عاطفة نحوها لم تخمد جذوتها بالرغم من كل ما أبدته نحوه من الصدود والعداوة

وسواء كان هذا أو ذاك فقد سرنى سلوكه . وازداد إصرارى على خطتى فلن أكون أقل رعاية لسمعتها من هـذا الخائن . وا كتفيت فى التعليق على مزاعمه بأن أكدت تمسكى بأقوالى السابقة وانه لا يوجد عندى ما أضيفه الى ما سبق . فأمر الجنرال الجنود باخراجنا . فخرجنا معاً

ونظرت الى وجه شفابرين فى هدوء ولم أقل كلمة واحدة . أما هو فابتسم ابتسامة الحقود الذى ارتوى غليله ، ورفع أغلاله بيده ووسع من خطاه حتى يسبقنى فى المسير

maktbtna.com

وقادونى بعد ذلك الى السجن . ولم يكتب لى بعـد ذلك أن أواجه لجنة التحقيق . أما ما حدث بعد ذلك وسأرويه للقراء فلم أشهده بعينى . ولـكنى سمعته بجميع تفاصيله فيما بعد حتى رسخت كلها فى ذاكرتى وحتى أصبحت أشعر كأنى شاهدتها بعينى



الفصل التاسع والعشرون

عواطف .. وأحزان

استقبل والداى مارى بترحاب اشتهر به أهل ذلك الجيل لـكل من طرق بابهم . فقد وجدا فى إيواء فتاة يتيمة ثواباً ساقه الله اليهما يجب أن يؤدياه بما يرضى الله . وبعد ذلك كسبت مارى قلبيهما برقتها وبساطتها . ولم يعد أبى نفسه يرى فى حبى لها نوعاً من الطيش . أما والدتى فلم يعد لها شاغل إلا ربط حياة بطرسها الصغير بابنة القائد

ووقع نبأ محاكمتى على أسرتى وقع الصاعقة فأذهل الجميع . وكانت مارى قد روت بسذاجة لوالدى أصل الرابطة الغريبة التى كانت تربطنى ببوجاتشيف . بمجرد وصولها الى البيت . وكان والداى قد اتخذا تلك القصة موضوعاً للتندر والبهجة . فلما بلغ والدى أمر اعتقالى لم يصدق أن يكون لى ضلع فى تلك الأعمال الثورية الاجرامية ضد عرش القيصر وسلالة الأشراف

واستجوب أبى سافيليتش استجواباً قاسياً . فاعترف له اننا كنا ضيوفاً على بوجاتشيف . وان بوجاتشيف أظهر الـكرم والمجاملة لى . وفى الوقت نفسه أكد سافيليتش ويده على الانجيل انى لم أرتكب أى خيانة . فاطمأن والداى قليلا وانتظرا بفارغ الصبر نبأ براءتى . ولـكن مارى كانت مضطربة جداً ولم تلتزم الصمت إلا من قبيل الحياء والحذر

ومرت عدة أسابيع على هـذه الصورة . وفجأة تلقى والدى خطاباً من بطرسبورج ، كتبه قريب لنا اسمه البرنس ب .. وجاء فيه بعد التحيات المألوفة ان الشائعات التى دارت حول إثمى وعلاقتى بمؤامرات الثوار ثبتت صحتها . وأضاف الى ذلك ان تعذيباً نموذجياً كان سيوقع على شخصى علناً حتى الموت .

لولا ان القيصرة تذكرت الخدمات المخلصة التى أداها والدى للعرش . وتذكرت شعره الأبيض . فتكرمت من أجله وقررت الرأفة بابنه المجرم . وخففت عنه بند التعذيب العلنى وجعلته النفى فى أقاصى سيبيريا مدى الحياة ...

وكادت هذه الضربة أن تقتل أبى . ففقد حزمه المألوف ، وزايلته عادة كبح الآلام والصبر عليها . فراح يندب حظه وهو يكاد يجن

— كيف حدث هذا ؟ إبنى مشترك فى مؤامرة بوجاتشيف ؟ لطفك اللهم ! لماذا عشت الى هذه الساعة ؟ إن القيصرة عفت عن حياته . ولكن هل هذا العقاب الجديد أخف وقعاً على نفسى ؟ إن الموت لا يخيفنا فقد مات لى جد على مشنقة بطرس الأكبر دفاعاً عما يعتقده صواباً . ولكن وصمة العار وخيانة الأمانة العسكرية والتآمر مع الثوار والعبيد وقطاع الطرق ، وصمة لا يمكن أن نبرأ منها الى الأبد

ولم تجسر والدتى على البكاء أمامه . وكانت تتجلد وتحاول تشجيعه بمختلف الأقاويل والتعلات . ولكنه رفض أن يتعزى

وكانت مارى أشد الجميع حزناً وأسى . لأنها كانت مقتنعة أننى كنت قادراً على تبرئة نفسى أن أردت . وخيل اليها أنها هى السبب فيما حل بى . فأخفت عن جميع العيون آلامها وراحت تفكر فى وسيلة لنجاتى

maktbtna.com



وذات مساء وأبى جالس فوق الأريكة يطالع تقويم البلاط القيصرى فى سأم . وأمى جالسة تطرز فى صمت ودموعها تسقط على القماش بين حين وحين . كانت مارى فى الحجرة ذاتها معهما فصرحت فجأة لهما بأنها مضطرة للسفر الى بطرسبورج . وترجوهما أن يمكناها من ذلك . فأسفت أمى لهذا العزم وقالت لها بسذاجتها :

مكتبتنا

— ولماذا تريدين الذهاب الى بطرسبورج ؟ أأنت أيضاً تريدين التخلى عنا ؟

فأجابتها مارى ان حياتها كلها ومستقبلها يتوقفان على تلك الرحلة . وأنها ستنشد العون والمساعدة لدى أهل الحظوة فى البلاط باعتبارها ابنة رجل راح ضحية إخلاصه للعرش

طأطأ أبي رأسه . لأن كل كلمة تذكره بجريمة ابنه المزعومة كان يحس بها كوقع الخناجر . ثم قال لها وهو يزفر :

— ارحلى يا ابنتي . فنحن لا نريد أن نكون عثرة فى طريق سعادتك . وليرزقك الله زوجاً صالحاً . لا خائناً موصوماً بالخزى والعار !

ثم نهض وغادر الحجرة . وبقيت مارى وحدها مع أمى . فأفضت اليها بطرف من مشروعها فى تلك الرحلة . فقبلتها أمى وهى تبكى ودعت الله أن يوفقها . وبعد بضعة أيام سافرت مارى مع بلاشكا والعبد الأمين سافيليتش الذى كان يتعزى بخدمة خطيبتي عن خدمتى



ووصلت مارى بعد ساعة الى صوفيا . وهناك علمت أن البلاط منعقد فى القصر الصيفى فى سارسكويا . فقررت النزول بها . وفى محطة تغيير خيول البريد حصلت على حجرة صغيرة . وأنست اليها زوجة ناظر المحطة فكانت تثرثر معها وتتباهى أنها ابنة أخ وقاد الحمامات فى القصر . وجعلت تروى لها بزهو الحياة الداخلية وكيف تجرى فى القصر . فالقيصرة تستيقظ فى ساعة كذا . وتشرب القهوة ثم تخرج الى الحديقة . ومن هم النبلاء الذين يصحبونها . وما هى طريقة الكلام على المائدة . وما الى ذلك من صور الحياة هناك

makhtbtna.com

وكانت مارى ايفانوفنا تصغى لها باهتمام شديد . ثم ذهبتا معاً الى البستان القيصرى . حيث شرحت زوجة ناظر المحطة لمارى تاريخ كل ممشى بالتفصيل وكل جدول . ثم عادتا معاً الى البيت وقد استطابت كل منهما صحبة الأخرى

وفى اليوم التالى ، فى ساعة مبكرة جداً ، ارتدت مارى ثيابها وعادت الى البستان القيصرى . وكان النهار رائعاً صحواً . والشمس تذهب بأشعتها قمم الأشجار التى اصفرت أوراقها تحت أنفاس الخريف الرطبة . والبجع الأبيض ينفض عنه النعاس ويحف بالشواطىء

مكتبتنا

وتوجهت مارى الى خميلة جميلة بها تمثال حديث الصنع ، كى تجلس فى الظل . وفجأة نبحها كلب صغير من سلالة انجليزية . فذعرت مارى . بيد أن صوتاً نسوياً لطيفاً ناداها :

— لا تخافى . إنه لا يعض

الفصل الثلاثون

الالتماس

ورأت مارى أمامها سيدة جالسة فوق مقعد من مقاعد الحديقة بالقرب من التمثال . فاتجهت نحوها وجلست على طرف المقعد ببراءة . وجعلت السيدة ترمقها باهتمام . وكانت ترتدى ثوباً أبيض وقبعة خفيفة رخوة ووشاحاً رقيقاً . هى فى نحو الخمسين من عمرها محمرة الوجه تدل قامتها الممتلئة على الهدوء الرزانة . أما عيناها الزرقاوان ففيهما رقة وسحر باسم

وقطعت السيدة الصمت بقولها :

— لا أظنك من أهل هذه الجهة ؟

— هذا صحيح يا سيدتى . لأنى وصلت أمس من الريف

maktbtna.com

— جئت مع والديك ؟

— كلا يا سيدتى . بل وحدى

— وحدك ! أنت صغيرة جداً لا يمكن أن تسافرى وحدك

— وما حيلتى . لا أب لى ولا أم

— وهل جئت لمصلحة ؟

— نعم يا سيدتى جئت لأقدم التماساً الى القيصرة

— أنت يتيمة . فلعلك جئت تشكين اليها من ظلم أو أذى ؟

— كلا يا سيدتى . بل جئت ألتمس مكرمة وإحساناً لا عدلا

مكتبتنا

— اسمحى لى بسؤال

— تفضلى يا سيدتى

— من أنت ؟

— أنا ابنة الكابتن ميرونوف

— الكابتن ميرونوف ؟ ذلك الرجل الذى كان يقود إحدى قلاع الريف فى مقاطعة اورنبورج واستشهد ؟

— هو بعينه يا سيدتى

فظهر التأثر على السيدة وقالت بصوت أرق :

— اسمحى لى إذن أن أتدخل فى شئونك . فانى أتردد على البلاط . اشرحى لى موضوعك . فربما تمكنت من مساعدتك

فنهضت مارى وانحنت أمامها باحترام . وكان كل ما فى السيدة المجهولة يجذبها اليها ويوحى بالثقة فيها . وأخرجت مارى من جيبها ورقة مطوية قدمتها الى السيدة المجهولة التى أخذت تتلوها

وبدأت السيدة القراءة باهتمام وحسن قبول . ثم فجأة تغير وجهها . وكانت مارى ترقب حركاتها وسكناتها . فأفزعها أن ترى القسوة على ذلك الوجه الهادى الباسم منذ قليل

maktbtna.com

وقالت السيدة بلهجة باردة كالثلج :

— أنت تلتمسين العفو عن بطرس جرينيف . والقيصرة لا يسعها أن تعفو عن هذا الشاب . فقد انحاز الى الثوار لا كما انحاز السذج الجهلاء . بل كما ينحاز الخونة الخطرون الأدنياء !

فصرخت مارى فى وجهها :

— ليس هذا صحيحاً !

فاحمر وجه السيدة حتى عينيها وقالت :



— كيف ؟ ماذا تعنين ؟

— أقسم لك أمام الله أن هذا غير صحيح . فأنا وحدى أعرف السر الحقيقى فى المسألة . وسأروى لك هذا السر . فمن أجلى وحدى عرض نفسه لهذه الويلات . وإذا كان لم يبرىء نفسه فلأنه أبى أن يذكر اسمى فى القضية

وأخذت مارى تسرد على مسامع السيدة المجهولة بحرارة وصدق كل ماورد

ذكره فى هذه الرواية . والسيدة تصغى اليها باهتمام عميق . فلما أتمت الفتاة سرد قصتها سألتها :

— أين تقيمين يا بنية ؟

فلما عرفت منها أنها تسكن عند زوجة ناظر المحطة أشرق وجه السيدة بابتسامة وقالت لها :

— فهمت . لا تحدثى أحداً على الاطلاق بأمر مقابلتنا هذه . حتى ولا زوجة ناظر المحطة . وأتعشم ألا يطول انتظارك لقضاء مسألتك

ونهضت السيدة وابتعدت فى ممشى ظليل وكلبها يتبعها . وعادت مارى ايفانوفنا الى مسكنها وقد امتلأ قلبها بالأمل والابتهاج

وفى البيت وبختها زوجة الناظر على خروجها فى ساعة مبكرة كهذه للنزهة . فهذه الساعة فى الخريف شديدة الرطوبة . ثم أحضرت الساموفار . وأمام قدح ساخن من الشاى أخذت تستأنف أحاديثها التى لا تنتهى عن البلاط وما يجرى فيه من النوادر والغرائب

وفجأة وصلت عربة من عربات القصر القيصرى أمام شرفة البيت ودخل الحجرة عليهما حاجب يرتدى ثياب القصر الرسمية . وأخبرهما أن جلالة القيصرة تفضلت فدعت للمثول أمامها ابنة الكابتن ميرونوف

makthtna.com

واستولى الذهول على زوجة ناظر المحطة لذلك النبأ وصاحت :

— يا إلهى ! إن القيصرة تطلبك الى القصر . كيف بالله عرفت نبأ وصولك بالأمس ؟ وكيف يمكن أن تمثلى بين يدى القيصرة يا أمى الصغيرة ؟ لا أظنك تعرفين حتى طريقة المشى المتبعة فى التشريفات وحفلات البلاط ؟ سأذهب معك . وسأعطيك ثوباً أستعيره لك من صديقة ذهبت الى البلاط مرة



فابتسم الحاجب وقال :

— إن الامبراطورة أصدرت أمرها باحضارى مارى ايفانوفنا وحدها . وفى الثياب التى توجد بها من غير تبديل أو تعديل

ولم يكن هناك بد من إطاعة ذلك الأمر . فخرجت معه مارى وهى تشعر أن المكتوب فى لوح القدر يوشك أن يتم . فاشتدت ضربات قلبها . وبعد بضع

لحظات وقفت بها العربة القيصرية أمام باب القصر . وبعد أن اجتازت أبهاء فخمة هائلة خالية دخلت الى قاعة بها حفنة من النبلاء يحيطون بالقيصرة فأفسحوا لها طريقاً . لترى أمامها فوق العرش سيدة الحديقة بعينها وقد ارتدت الثياب الرسمية . فارتمت مارى باكية على قدمى الامبراطورة التى هشت لها وأنهضتها وقبلت جبينها وقالت :

— لقد اقتنعت من كلامك ببراءة خطيبك . ووضعت كل شىء فى نصابه . وها هو خطاب تحملينه الى حميك الفاضل رفعنا فيه من قدرك لتكونى أهلا لمصاهرته . ونوهنا فيه بسجاياك . ولئن لم تكونى ثرية بالميراث ، فان فى عنقنا الامبراطورى ديناً يسعدنا أن نوفيه لابنة ضابطنا المخلص الكابتن ميرونوف . فاطمئنى يا بنية على مستقبلك المادى وذريتك

وبعد أن أغدقت على اليتيمة المسكينة من عطفها السابغ . أمرت القيصرة أن تسافر مارى فى اليوم ذاته فى عربة رسمية من عربات القصر مع حرس شرف قيصرى ينوب عن جلالتها فى تقديمها الى حميها رسمياً ، وحضور حفل قرانها على خطيبها الشاب فى بيت أسرته الموروث

makthtna.com



وفى اليوم نفسه رحلت مارى ايفانوفنا وهى لا تفكر فى إلقاء نظرة واحدة على بطرسبورج القريبة منها . لأن غايتها الوحيدة أن تلتقى بالفتى السعيد بطرس جرينيف الذى ربطته بها الأقدار وجعلت فيه عوضاً لها عن فقد أبويها وجزاء لإخلاصها وطهارة قلبها النبيل



روايات تاريخ الاسلام بالصور

لجرجي زيدان

تصدر في عرض جديد مبتكر
يعتمد على رسوم دقيقة رائعة
مطبوعة طبعاً أنيقاً بالألوان بحيث
تبدو الرواية كأنها فيلم
سينمائي اخاذ وبذلك يستمتع
بقراءتها الصغار والكبار على السواء

maktbtna.com

مكتبتنا

من دار الهلال



إلى الآباء والأمهات

في جميع انحاء العالم العربي

ألف المؤلفون وكتب الكتاب حتى امتلأ الميدان بكل ما ينفع الكبار الناضجين القادرين على ادراك ما يعرض عليهم فى يسر وسهولة ، أما الناشئون الذين ما زالوا على حافة الطريق فلم يهتم بهم الكتاب الاهتمام الكافى ، ولم يحاولوا أن يأخذوا بأيديهم ويبسطوا ما يعرضونه عليهم بالقدر الذى يناسب عقولهم ويساير ثقافتهم وأعمارهم

لهذا حاولنا أن نسد هذه الثغرة باصدار **روايات تاريخ الاسلام** ـ لجرجى زيدان ـ وهى كما يقول الدكتور طه حسين « نحو جديد من أنحاء الانتاج الادبى فيه احياء للتاريخ العربى ، وفيه توجيه للشباب ، وفيه بعد هذا كله تأثير فى الخيال » . هذا الى أنها موسوعة شاملة للتاريخ العربى فى أدق صوره وأسمى مراحله ـ قمنا باصدارها ، بمعاونة لفيف من كبار رجال التربية ـ **فى عرض جديد مبتكر يعتمد على رسوم دقيقة رائعة أشبه بفيلم سينمائى يجلوها على أصدق وجه ويصورها أدق تصوير**

وهدفنا من اصدار هذه السلسلة بهذه الصورة المبسطة ، ان يقف أبناؤنا على مواطن البطولة والتضحية والجهاد فى تاريخ أمتنا العربية ، وأن يتعرفوا على شخصيات عربية اسلامية فذة خلد التاريخ ذكرها ومجد شأنها ، لعلهم ينهجون منهجها فيحيوا سنة السابقين ، ويبلغوا ما بلغه الاولون من مجد وعزة وكرامة وسؤدد

وسيصدر الجزء الاول من السلسلة الجديدة فى أول ابريل المقبل

maktbtna.com

روايات تاريخ الاسلام لجرجي زيدان في غنى عن التعريف ...
فقد استمتع بقراءتها وحرص على اقتنائها، وكانت موضع تقدير
واعجاب مئات الالوف من القراء والأدباء في كافة أنحاء الشرق
العربي . وقد طبعت عدة مرات نفدت جميعا ، كما ترجمت الى عدة
لغات . وقد رأت دار الهلال أن تيسر على الناشئين قراءة
هذه الروايات الممتعة ، كي يقفوا على مواطن البطولة والتضحية
والجهاد في تاريخ أمتنا العربية **فاعتزمت أصدارها**
في عرض جديد يعتمد على رسوم دقيقة
اشبه بفيلم سينمائي يصورها أدق تصوير

وستبدأ السلسلة برواية :

المملوك الشارد

maktbtna.com

بنيل

وهي رواية حافلة بالأحداث والمفاجآت ، تصور حياة الناس في
مصر وسوريا منذ نحو مائة وخمسين عاما ، وما كان يتحلى به البعض
من بطولة وتضحية وشهامة ، وما كان يتصف به البعض الآخر من غدر
ومكر وخيانة .. كما تصور مذبحة القلعة التي ذهبت في التاريخ كأسوأ
مثل على الغدر والخيانة ، وكيف نجا منها المملوك أمين بك ، وكيف
طار بفرسه من برج القلعة ، وفر هاربا الى الصحراء ليلاقي فيها
من الشدائد والأهوال ما لا يخطر على بال ...

يصدر في أول ابريل ١٩٥٧

الثمن ٨ قروش

اشترك فى روايات الهلال

(أسعار الاشتراك على الصفحة الثانية من الغلاف)

وكلاء روايات الهلال

سوريا ولبنان : شركة فرج الله للمطبوعات ـ مركزها الرئيسى بطريق الملكى المتفرع من شارع بيكو فى بيروت صندوق بريد ١٠١٢

العراق : السيد محمود حلمى ـ المكتبة العصرية ـ بغداد

makthbtna.com

اللاذقية : السيد نخله سكاف

جده : السيدهاشم بن السيدعلى نحاس ـ ص٠ب ٤٩٣

البحرين : السيد مؤيد احمد المؤيد . مكتبة المؤيد



البرازيل : Dr. Michel H. Thomé, Pateo Do Colegio, N° 3. 3° Andar, Sala 9, Sao Paulo, Brazil.

هـذه الرواية

(ابنة القائد) هى إحدى الروايات الرائعة التى تجمع بين الحرب والحب فى صعيد واحد ، ففيها ميدانان ، ميدان الحرب ضد المتمردين على الوطن وعلى الحضارة ، والراغبين فى الرجوع ببلادهم الى عهود الفوضى والفساد ، ميدان تبدو فيه الوطنية رائعة جليلة ، وصدق الاخلاص للمبدأ وللواجب المقدس الذى يدين به كل جندى شهم شجاع ، وفيه البطولة العسكرية ، واستبسال المدافعين عن الحمى ، وعن الشرف العسكرى ، أما الميدان الثانى فميدان الحب الرفيع الذى تناوئه التقاليد البالية ، وتحاك فى سبيل مقاومته واضطهاده والقضاء عليه المكايد والدسائس والشهوات الدنيئة التى تتربص بالأطهار

ويتشابك الميدانان ، فاذا القارىء أمام شبكة تقاطعت حبائلها واختلطت اختلاطاً يكاد يختنق من وطأته الحق والحب ، لولا عناية الله وشجاعة فتاة بطلة ، ورثت الشجاعة عن أبيها الجندى العظيم

هى قصة شاب اندمج فى الجيش ، وأصبح ضابطاً ، ووقع فى اشراك الحب الذى تغلغل فى أعماق قلبه ، واستقر فى حبة فؤاده ، ثم واجهته ظروف حربية اختلطت بحبه وغرامه ، فكان بين أمرين ، إما أن يفقد شرفه العسكرى ، وإما أن يفقد تلك الفتاة التى هام بحبها ، وكلا الأمرين نكبة لا قبل له بهما ولكنه استطاع ببطولته وشجاعته وثباته وقوة جأشه أن يحتفظ بالاثنين معاً ، وأن يظل ضابطاً شريفاً مخلصاً لمبدئه ، وفياً بعهده ، وأن يظفر رغم الأحداث الخطيرة بالتى سبت قلبه



maktbtna.com

أما كيف كان ذلك فهذا ما يطالعه القارىء فى هذه الرواية ويحس وهو يطالعها أنه مدفوع إلى مواصلة القراءة دفعاً قوياً بروعة الأسلوب ، وحبكة القصة ، وقوة شخصياتها ، وتصويرها تصويراً فنياً أخاذاً إنها رواية مشوقة إلى حد عظيم ، وحسبها أنها بقلم الأديب الخالد اسكندر بوشكين

وسلسلة « رويات الهلال » تبذل ما فى طوقها فى اختيار أمثال هذه الرواية الرائعة التى يضعها عظماء أدباء العالم الذين اشتهروا لا بالأدب العالى فحسب بل بكل عناصر التشويق والفن الرفيع

مكتبتنا

